متماثلين في درجة تقبلهم للمواقف المبهمة أو الغامضة وكذلك هي المجتمعات إذ يصدق عليها "كموضوع عام " ما يصدق على الفرد (١٠٥).

إذا ما حاولنا دراسة موضوع المعتقدات في المجتمع الكُردي فلايمكن الخروج عن خطين أساسيين أولهما الإسلام الذي هو الدين الذي يتدين به معظم الشعب الكُردي وثانيهما ما ورثه الشعب الكُردي من طقوس وعادات كانت - في الحقيقة - جزءاً من ديانة الشعب الكُردي ونقصد الزرادشتية بالدرجة الأولى والمسيحية بالدرجة الثانية، فتحولت بعض الطقوس والعادات والقيم من طقس تعبدي ديني إلى عادات شعبية فغدت جزءاً من الفلكلور أو المعتقدات الشعبية التي لاتمت إلى صلب الإسلام بصلة فضلاً عن (جهود---!) الكثير من المشعوذين الذين رسخوا أو اختلقوا بعض المعتقدات ومنحوها طابعاً دينياً حتى وصلت الأمور إلى الفعاليات الخارقة التي ربما اقتربت من السحر والدجل ونأت عن الأديان السماوية لا بل نأت حتى عن الزرادشتية مثل بعض البدع التي جاءت بها هذه الطائفة أو تلك أو هذا الشيخ أو ذاك محاولين إقناع الناس بإمتلاكهم لقوى غيبية خارقة وحضوه خاصة عند الله.

لو تعقبنا تاريخ الشعب الكُردي من الوجهة الدينية لوجدناه كان يتدين قبل الإسلام بديانة تمثل مرحلة متطورة في الفكر الديني ونقصد الزرادشتية والمسيحية.

إن "واج" المتخصص في علم إجتماع الدين يضعنا أمام ثلاث مراحل في تطور الشعور الديني عند الإنسان.

المرحلة الأولى: مرحلة الأساطير والتعابير البدائية.

المرحلة الثانية: ظهور النزعة نحو تنسيق الأفكار بإتجاهات أحادية أو مركزية مثلما ظهر في مصر وبابل والمكسيك والصين والهند واليونان.

المرحلة الثالثة: وهي مرحلة المدونات الدينية التي تتضح فيها العقائد وتنتظم كما في اليهودية والمسيحية والإسلام وكذلك الزرادشتية والمانوية والبوذية والهندوكية والكونفوشيوسية.

إذن كان الكُرد في الحقيقة قبل الإسلام بزرادشتيتهم أو مسيحيتهم أصحاب عقيدة مدونة ومنظمة. أما كيف دخل الكُرد الإسلام فهذا موضوع تاريخي محض ولكننا سنعرج عليه من بعد وبقدر ما تسمح به حدود هذا الكتاب، معربين عن رأينا بوضوح.

إن من أولى ملاحظات ريج عن أمير بابان محمود باشا عام ١٨٢٠ كانت ملاحظة (روحية) لها علاقة بمعتقدات هذا الأمير. فقد ذهب محمود باشا ليرحب بالمستر ريج في (سَرجنار) وهو موقع جميل كثير المياه والأشجار قريباً من السليمانية فقد رغب الباشا أن يحط المستر ريج ورجاله في سرجنار قبل دخولهم السليمانية وعندما قام محمود باشا مودعاً

المستر ريج وقبل أن يترك الخيمة أخبره بأنه يرغب أن يدخل المستر ريج السليمانية بعد يومين في التاسعة صباحاً. ويعلق ريج على هذا بأنه أدرك حالاً أن السبب في تحديد اليوم والساعة مسألة لها علاقة بخرافة تنجيمية ولم يكن محمود باشا متشدداً في ذلك فقد أعقب عبارته لمستر ريج بـ(إن راق لك ذلك) ويذكر ريج بأنه سايره في الأمر(٥٢) ففهم من هذا إن أمير بابان ربما كان قد أستفسر من منجم عن أي وقت أفضل أو أكثر خيراً أو أبعد شراً لدخول ريج مدينة السليمانية فحدد له التاريخ.

ومن ملاحظات ريج المباشرة عن معتقدات باشا السليمانية، أنه أي محمود باشا وهو الحاكم المطلق لهذه الإمارة كان يخشى روحياً الشيخ خالد النقشبندي (مولانا خالد) فقدكان يقف ليملأ غليون الشيخ خالد بنفسه.

يصف ريج الشيخ خالد النقشبندي الذي كان في السليمانية عندما كان الشيخ يقطنها إذ يقول عنه،إنه مسلم زاهد كبير أسمه الشيخ خالد إلا أن الأكراد يعتقدون آن من الامتهان أن ينعت بغير (حضرة مولانا) وأنهم يسمعون أقواله (الأحاديث). وهو من عشيرة الجاف ونقشبندي الطريقة، انتسب إليها في دلهي بإرشاد الصوفي الشهير سلطان عبدالله وله من المريدين (١٢٠٠٠) مريد في مختلف أنحاء تركيا والبلاد العربية.

ويضيف ريج إن الأكراد جميعهم يعدونه ولياً والكثير منهم يضعونه في صف نبيهم – ومازال الحديث لمستر ريج– والباشا وأخوه وجميع زعماء الكُرد تقريباً كلهم من مريديه فهم على الأقل في منزلة واحدة مع الولي المسلم الشيخ عبد القادر الكيلاني (٩٨) وقد صادف أن غادر الشيخ السليمانية في الخامس والعشرين من تشرين أول في السنة التي كان مستر ريج قد حل ضيفاً على السليمانية والمستر ريج لايقول غادر بل يقول (هرب صباح اليوم الشيخ خالد الشهير) ويعلق ريج على ذلك أنه على الرغم من أن هروبه كان مفاجئاً وسرياً فإنه استطاع أن يصطحب زوجاته الأربع معه، ولم تعرف الوجهة التي سار فيها (٢٢٠).

ومما جاء في تعليق المستر ريج أيضاً أنهم بدأوا ينعتونه بالكافر ويرددون الروايات العديدة عن غطرسته وكفره وزندقته ويضيف، أن الشيخ أضاع منزلته أثر وفاة نجل الباشا إذ ادعى أنه سيشفيه من مرضه، وانه بحث في سجل الله عن أمره... وغير ذلك بينما يشير إلى ما تردده من إشاعات أخرى عن سبب هروبه إذ قال البعض انه صار يبذر بذور السوء بين الباشا وإخوانه الذين أرادوا أن يواجهوه بالأمر في حضور الباشا.كما قال آخرون أنه أراد أن يضع أسس مذهب جديد وأراد أن يجعل من نفسه سيد البلاد الديني وقيل عنه الكثير وعلى ما يبدو كان له خصومه وعلى رأسهم الشيخ معروف* – الذي كان قد راسل مستر ريج يطلب

* الشيخ معروف النودهي، وهو شيخ الطريقة القادرية في السليمانية.

منه علاجاً لداء كان قد أصيب به (٢٢٧-٢٢٨).

وتعقيباً على ملاحظات المستر ريج حول بعض الزعامات الدينية في كُردستان لابد من أن نعرج على الشخصية الكارزمية Charismatic personality بشكل عام والدينية منها بشكل خاص، لقد ظهرت في تاريخ وحياة المجتمع الكُردي شخصيات كارزمية عديدة وقبل الحديث عن الشخصية الكارزمية أو السلطة الكارزمية وأثرها على الحياة الإجتماعية والسياسية في كُردستان لابدّ من إلقاء بعض الضوء على هذا الضرب من الشخصية.

إن الشخصية الكارزمية هي تلك الشخصية التي يساور صاحبها الإعتقاد وبثقة عالية بالنفس من أنه رفيع المستوى في عقله وفي قيمه وغاياته وهذا ما يدفعه إلى إخراج هذا الإعتقاد والشعور إلى حيز التطبيق فيحاول أن يوضح للآخرين (الحقيقة) وأن يكشف لهم عن (الخفايا) السابقة والحاضرة والمستقبلية وهو يتحدث من عليائه إلى الآخرين الذين يفترض أن يكونوا أقل مستوى منه أي جهلة، فمما يساعد على نمو مثل هذه الشخصية أن تكون نسبة الجهل فعلاً عالية في الوسط الذي تظهر فيه. وقد تكون هذه الشخصية ذات نزوع اقتصادي أو سياسي أو ديني أو أي مجال آخر.

فإذا كان الشخص الكارزمي ممن يمتلك نزعة دينية أو امتلكه الشعور أن الله قد أرسله لإصلاح المجتمع لابد من أن يعزز هذا الأمر بشيء من المعجزات كي يكون مقنعاً، لأن الجدل المنطقي لا مكان له في مثل هذه الحالة.يذكر ويبر في هذا السياق، وهو من علماء الإجتماع المعنيين بدراسة الزعامات الدينية أن السلطة الكارزمية تتصف بصفتين أساسيتين.

الأولى، أنها تستحث الجانب اللاعقلي في الوجود الإنساني لذا فالولاء للقائد الكارزمي سيقوم على أساس العاطفة والاندفاع وبحماس متطرف بسبب خارقية القائد أو ما يسمى بالكرامات التي -لا جدال- في أنها إلهية المصدر وهي هبة من الله له وحده ومن هنا فإن الشخصية الكارزمية الدينية. تطلب من أتباعها لابل تأمرهم أمراً بالولاء المطلق الذي لايناقش (لان النقاش يقوم على العقل).

أما الصفة الثانية، فهي أن هذه الشخصية تتقاطع مصالحها مع أي سلطة مدنية بيروقراطية لذا تحاول من خلال أتباعها (المتحمسين) أن توسع حجمها وتشدد من عزمها فإن كانت هذه الشخصية أساساً تمتلك الحكم الدنيوي زادت الزعامة الدينية من ثقلها ورسخت حكمها وإذا كانت هناك سلطة دنيوية في المنطقة فإنها تسعى لأن تفرض إرادتها على الحاكم الدنيوي وتخضعه وغالباً يضطر الحكام إلى الإذعان لسلطة مثل هذه الشخصية حفاظاً على السلطة الدنيوية التي يمتلكونها والتي قد لاتصمد أمام السلطة ذات الطابع الروحي (١٨٧).

ولم يخفَ على السوسيولوجيين المعنيين بالشخصية الكارزمية بما في ذلك (الكارزمية الروحية) من أنها قد تخفق وقد تنقلب عليها الموازين ولأسباب عديدة فيما يخص عدم قدرة الشخصية الروحية الاستمرار على إقناع الجمع من (المريدين ومن غير المريدين) على إمتلاكه للقوة الخارقة أو عندما تستطيع شخصية دنيوية الإتجاه قوية الإحاطة بهذه الشخصية الكارزمية الدينية فتتقهقر أمامها. إن هذه الإطاحة في حد ذاتها برهان على (لاخارقية) الشخصية الروحية وبطلان ادعائها وإلا لما حلت الإطاحة أساساً ..هكذا سيفكر الآخرون.

يذكر نوتنكهام إن الشخصية الكارزمية الروحية تقاوم أي شكل من أشكال التغيير وتحاول إبقاء الأوضاع على ما هي فيه ففي ذلك ديمومتها وحمايتها وأشد ما تخشاه هو التغير الإجتماعي لأن التغير الإجتماعي كثيراً ما يقلب السحر على الساحر (١٦٢-١٦٣).

والحقيقة فإن قصة هروب (الشيخ خالد) مع زوجاته الأربع كما يذكر ريج ربما احتملت أكثر من سبب فقد يكون سبب سقوطه من الناحية الخارقية أو الروحية وما كان يدعي من قوى أمام فشله في شفاء إبن أمير بابان ووفاته. وقد يكون السبب توقعه حدوث تغير سياسي- إجتماعي مرتقب في السليمانية كان لزيارة ريج والثقة العالية أو الصداقة الحميمة التي نشأت بين ريج (ممثل بريطانيا الرسمي) وأمير بابان دورها إذ أقلقت الميزان النفسي لدى الشيخ فضلاً عن تشجيع ريج للتقرب من إيران والإبتعاد عن الدولة العثمانية، وهنا يجب أن لاننسى أيضاً أن شخصية كارزمية أخرى منافسة للشيخ خالد كانت في السليمانية وبدأت تتقرب من ريج.

إن رسالة الشيخ النودهي لمستر ريج تعطينا مؤشراً إيجابياً، إذ كيف يعتقد شيخ طريقة يفترض أن يعالج الناس، بدواء يأتيه من (إنكليزي مسيحي) يده (غير طاهرة) أساساً لأنه غير مختون- وليسمح لنا القاريء فإننا نتحدث ضمن مناخ عام ١٨٢٠ أي ما يقرب من قرنين من الزمان، زد على ما تقدم فإن شقيق الأمير كان قد ضاق ذرعاً من تدخل رجال الدين وملازمتهم لمجلس الأمير وقد ذكرنا ذلك في موقع آخر من هذا الكتاب وقد لايكون هذا الضيق مقتصراً على شقيق الأمير وحده بل على ولاة الأمر كلهم لأنهم كانوا على علم ودراية إلى ما آلت إليه شخصية الأمير من ضعف يكاد أن يكون مرضاً نفسياً حتى بات (يخشى الحكم) ويعده بلاء إبتلى به، مخافة من الله.

إن شخصيات كارزمية أخرى ظهرت في كُردستان شبيهة بمولانا خالد في السطوة الروحية لكن البعض من هذه الشخصيات تحولت من شخصيات كارزمية روحية محضة إلى شخصيات روحية-دنيوية فامتلكت الشخصيتين معاً. وهنا يمكن أن نقف إزاء شخصيات متباينة في شدة تبنيها الروحي أو الدنيوي لذا لانعجب من شخصية روحية امتلكت الزعامة الروحية وبولاء

مطلق لكن إمتلاكها للزعامة الدينية أو الدنيوية جعلها لاتخشى بل بالعكس تطالب بالتغيير الإجتماعي الذي قلنا عنه يمثل أبرز تهديد للشخصية الكارزمية الروحية مثل شخصية الشيخ عبد السلام البارزاني الذي لم يكتفِ بالمطالب حسب بل ثار من أجل تغيير واقع المجتمع الكُردي وطالب بحقوق الإنسان الكُرديَ الثقافية والسياسية. واعدم من أجل ذلك في أواخر العهد العثماني ولم ير الشيخ البارزاني وهو زعيم روحي إسلامي مانعاً من أن يعرب عن رغبته لزيارة رئيس أساقفة كانتربري في بريطانيا من أجل مساعدته في فتح مدارس في كُردستان. وقد أشرنا إلى هذا الموضوع في موقع آخر من هذا الكتاب وأعدم هذا الزعيم الروحي –المدني في سبيل شعبه وقضية شعبه أي أنه تجاوز طوق الكارزمية الروحية إلى الكارزمية الدنيوية واحتفظ بالقوتين معاً بشكل متوازن، خلاف ما نجد عند الشيخ محمود وهو بدوره شخصية كارزمية أيضاً وبالرغم من تجاوزه الدائرة الروحية المحضة إلى الدائرة الدنيوية (السياسية) أي تداخل الدائرتين معاً بيد أننا نعتقد أن الشيخ محمود لم يستطع خلق حالة توازن بين القوتين بل كانت بعض مواقفه السياسية تتسم باللاتوازن بين الشخصيتين الكارزميتين الروحية والدنيوية بل دعنا نسميها افتقاد المواءمة بين القطبين القطب الروحي الخارق (فالرصاص لايخترق جسده) وبين القطب السياسي الحواري مع دولة بريطانيا لها حكامها المحنكين والمعدين اعداداً سياسياً وعسكرياً وإجتماعياً مسبقاً ذات التوجه العلماني.وبالرغم من ذلك ومن باب الموضوعية لابد من الاشارة إلى أن الشيخ محمود الحفيد لم يكن متطرفاً جداً ضد الإنكليز كما يعتقد البعض، أو كما يبالغ البعض. لقد حاول أن يضغط على كارزماتيته الروحية فطالب بالانتداب البريطاني أسوة بالانتداب البريطاني لدولة العراق وفضل ذلك على الانتداب العربي وهذا ما أشير اليه في الفصل السياسي من كتابنا هذا.

ومن ملاحظات ريج عن الكُرد في معتقداتهم الدينية يعطينا مثالاً عن الخوشناو وهي عشيرة كردية تابعة لمحافظة أربيل وكذلك عن أهل راوندوز وهو قضاء كردي تابع لمحافظة أربيل أيضاً، يقول ريج عن هؤلاء، لايردهم عن قتل الإنسان وازع ولكن الصلاة لاتفوتهم مهما كلفهم الامر، وان كان المعلوم عنهم أنهم يتقاتلون في الجوامع(١٠٤).

أما سون في العقد الأول من القرن العشرين فهو بدوره له إنطباعاته عن المعتقدات الكُردية ويصف الكُرد أنهم على شاكلة الفرس الذين لم تطرد (الاسلاميات) منهم الاساطير الأولى إذ يؤمنون بالحوريات بالرغم من المساحة الشاسعة التي يشغلها (جان) العرب فان البري (الحورية) و(الشيط) لايزالان يحتفظان بمكانتهما وكذلك هناك الـ(بير) أو (الولي) ويلف أصله الغموض والزعم الشائع انه موجود في أمكنة معينة وفي القبور وتنذر له النذور بالخرق

وهذه عادة موجودة قبل الاسلام (١٩٧) والحقيقة فان سون يبالغ في هذا بعض الشيء لأن الاسلام لاينكر الروح والروحانيات والجان. ويعود سون فيرى أن الكُرد يعتقدون بالخرافات والارواح الشريرة والعين الحاسدة وهو يعتقد أن الملالي ورجال الدين لعبوا دوراً في ترسيخ مثل هذه المعتقدات.

كما استرعى إنتباه سون أن في بعض المناطق لايؤاكل المسلم النصراني ولكن سون لم يعط أمثلة وافية على هذه الملاحظة ولكنه يذكر أن هذه المسألة تتضح عند الشيعة أكثر من ظهورها عند السنة الأكراد.

وكذلك فان سون الذي تنكر بمظهر إيراني شيعي يحدثنا في مذكراته عن نقاشه مع أحد السنة عن (التربة) التي كان سون يضع جبهته عليها أثناء الصلاة مثلما يفعل الشيعة (٤٤). ويحدثنا سون عن تجربته مع الافكار الصوفية لرجل كبير في العمر أصبح رفيق سفر سون في دياربكر في كُردستان تركيا إلى الموصل على ظهر (الكلك) وهو الحاج ولي الأربيلي، هكذا كان يسمي نفسه. وبعد أن يتحدث سون طويلاً عن ترتيبهما لمتطلبات السفرة يضعه تحت عنوان (كردي عاطفي)، ويذكر أنه كان قد تعود أن يطاع ويعلل بأنه كان قد حج بيت الله الحرام (١٧) حجة وقد أطلق اسماً على سون فسماه (موسى) وكان يخاطبه بعبارة (ابني الحبيب).

يذكر سون كيف أخذ هذا الشيخ بذراع سون في احدى الاماسي بعد نهار مليء بالتعب وقاده إلى بقعة هادئة بين الاشجار في منطقة شاهقة الصخور في دعوة (للتخلق) و(تملي العين).

يصف سون الشيخ الذي جلس يمعن النظر بمشاهدة الطبيعة بصمت عميق ثم عبر عن أحاسيسه بعبارة طويلة (الله أكبر) ثم عاد الشيخ في التحديق في الجبال البعيدة وبعد ذلك ألقى محاضرة على سون في عظمة الخالق وعظمة الوجود وجمال الطبيعة التي تتراءى من خلالها عظمة الله ولكن سون يلمح في مذكراته هذه أمرين:

أولهما تلك البقعة الشاعرية الموجودة في صدر كل رجل آري رغبة في أن ينسب كل شيء جميل إلى الخالق.

وثانيهما أنه قد رأى من نمط هذا الرجل كثيراً في فارس ويسمي هذا النوع من البشر (ذوي الشخصية المزدوجة) فليس بعيداً على ما يذكر سون أن تجد هذا النوع في أنقى لحظاته صافياً نقياً وهو يتأمل الخالق من خلال الوجود بهذه الروح الشفافة لكنه لا مانع لديه في أن يرغب بالقيام بالحيلة والخداع أو الجريمة أو كما يقول سون (أوضع

الغايات)(٩٤).

الحقيقة وددنا لو أن سون أفصح أكثر في هذا الموضوع الحساس فهو يتحدث من خلال خبرة لاسيّما في المجتمع الفارسي، على أي حال فإن سون يذكر لنا هذا الحاج الأربيلي الازرق العينين الذي كان يعمل دليلاً للحجاج مثالا على العشق الالهي ولحظات صفاء الروح من خلال التأمل، وسنأتي على هذا الموضوع وما يماثله أي التناقض بين المبدأ والسلوك من بعد .يحدثنا سون بشكل طريف عن عدم إعتقاد أهل المدينة بالاطباء عندما جاء أحد الاطباء في السنين التي سبقت السنة التي كان سون يسكن السليمانية، فقد رحل هذا الطبيب سريعاً عن المدينة مثلما رحل قبله من الاطباء، وكل واحد منهم عندما كان يأتي المدينة يعتقد انه سيحصل على مال وفير لعدم وجود طبيب ولكنه كان يصدم بعبارة يذكرها سون كثيراً هي من العبارات التي كانت تتصدى لكل جديد أو لكل معتقد غير مألوف لدى الناس فالطبيب الحريص على توعية المرضى أن القذارة سبب المرض يجابه بعبارة (عَيبَه باوكم) أي ما معناه هذا الذي تقوله شيءٌ معيب وهكذا حمل الطبيب أدواته الطبية وعاد إلى كُردستان إيران(٢٥٤). ترى هل كانت التعاويذ وأعمال المشعوذين هي التي تطرد الأطباء من المدينة، ربما ولكن كما يقول المثل لايصح إلا الصحيح فها نحن في بداية القرن الحادي والعشرين نجد المدينة تضج بالأطباء المحدثين والجراحين وما من (عَيبَه باوكم) والحمد لله...

يذكر سون وصول (مصور) إلى مدينة السليمانية وقد نجح في عمله في الايام الأولى من وصوله لكن كما يعلق سون أن واحداً من المتبحرين نشر قول أحد الروحانيين في المدينة حول وجوب قطع الرأس من تصاوير الاشخاص بشفرة وإلا أزعجت روح المصور الروح التي التقطت لها الصورة يوم الآخرة وهكذا قام أهل السليمانية بقطع رؤوسهم على الورق وطردوا المصور من المدينة (٢٥٤).

وإذا كان سون قد مر بهذه الخبرة بما يقرب من قرن من الزمان فإن مؤلف هذا الكتاب راعه في نهايات القرن العشرين في إحدى محاضراته في جامعة بغداد على طلبة المرحلة الأخيرة ويذكر أنه قال في تلك المحاضرة عبارة (صورة طبق الأصل) وربما كان الحديث عن شخصيات التوائم ورفع أحد الطلبة يده وقال (دكتور ما رأيك بكلمة صورة؟) فقلت لاأفهم سؤالك، فقال بصريح العبارة إن عبارة صورة أو تصوير نحن المسلمين لدينا تحفظ عليها قلت على ماذا؟؟ قال على الصورة... وعلى أي حال كنت مرهقاً ووجدته يتحدث بجد وانفعال، فقلت لا بأس يا عزيزي، هات ما عندك أجدك ترغب في قول شئ... قال... (دكتور إن الصورة حرام في الإسلام) قلت ماذا تعني؟ قال الإسلام يحرم على المرء أن يصور نفسه، فقلت له أنا لا علم لي بهذا الموضوع بقدر ما تسمح به ثقافتي الإسلامية وبقدر اطلاعي على القرآن الكريم والسنة

النبوية) ونهضت إحدى الطالبات تساند زميلها وتقول (نعم دكتور الصورة حرام) وسألتها كيف تم قبولكما في الجامعة واستمارة القبول والهوية الجامعية تتصدرها صورة... ألم تذهبا عند المصور طول حياتكما فأجاب الطالب بنبرة أهدأ (والله دكتور مجبورين) أي لا حيلة لنا... قلت له إن كنت مؤمناً حقاً بأن هذا حرام فهل قدمت طلباً إلى دائرة القبول المركزي في وزارة التعليم العالي تبين لهم استحرامك لالتقاط صورة ربما كان المركز سيراعي مشاعرك فأجاب بكلاّ...

والحقيقة حسبت أن الموضوع انقضى وعدت إلى محاضرتي، ولكني فوجئت في اليوم التالي إذ جاءني هذا الطالب ومعه الطالبة نفسها إلى غرفتي في الكلية ومعهما كتاب ووضع الطالب الكتاب في يدي ولاحظت إن يده كانت ترتجف عندما فتح لي إحدى الصفحات كان اسم الكتاب (الكبائر) على ما أعتقد وطلب مني بصوت منفعل أن أقرأ وفعلاً قرأت ووجدت أن الكتاب يعد الصورة كبيرة من الكبائر. قلت له مالك مهتم بهذا الموضوع كثيراً ومن الأمس يا ولدي فأجاب هل آمنت الآن يا دكتور أن الصورة حرام؟ قلت كلا... قال كيف والمؤلف يقول ذلك بصريح العبارة؟ قلت له إن مؤلف الكتاب إنسان مثلي وهذا الكتاب هو ليس بالقرآن ولا بحديث نبوي ولا أشعر قطعاً بأي شكل من أشكال (الحرام) إذا ما وقفت أمام الكاميرا... وخرج الطالب والطالبة وهما لاأعلم آسفان على مصير أستاذهما يوم الحساب أم حانقان عليه. أما أنا فقد كنت واثقاً أن كلاً منهما قد وقف وسوف يقف عشرات المرات أمام الكاميرا.

ويحدثنا سون عن وصول الحاكي أو الفونوغراف وكان آنذاك أكثر المخترعات الغربية انتشاراً في الشرق ولكن الحاكي صودر من قبل البعض لأنه آلة كافرة أي الاستماع إلى الأغاني بواسطة اسطوانة الحاكي (القوان) (٢٥٤). كم أتمنى لو ان سون بعث حياً اليوم ليجد الفرق الموسيقية والآلات الغربية والراديوات والمسجلات الصوتية وأجهزة الفديو كاسيت والستلايت في كُردستان... وما من (عيبه باوكم) تقال أمام كل التطور الحضاري الذي بدأت كُردستان تعيشه من خلال تقدم التكنولوجيا العالمية.ولكن سون يلمح لنا إن المجتمع آنذاك لم تكن عقيدته عمياء في الشيوخ فالأسر أو العوائل والمحلات (جمع محلة) تميز بين شيخ وآخر. فكان بعض الشيوخ أو أبناء الشيوخ غير مقبولين ومرفوضين إجتماعياً بسبب تصرفاتهم التافهة... كانوا شبه ممنوعين من ارتياد المحلة الفلانية أو تلك أو أن المحلة تفخر بأن لم تطأ قدما (شيخ) شوارعها. ويصف سون بعض أشكال العنجهية التي تصدر عن أبن فلان أو ابن علان من المشايخ لا نرى ضرورة ذكر أسمائهم هنا.

أما ويگرام فيضعنا أمام ملاحظة جميلة لاحظها أبان وجوده بين الكُرد المسلمين في منطقة حكاري في العقد الأول في القرن العشرين، فقد وجد أن كل كردي هناك يكن إحتراماً عظيماً

لمار شمعون ويعتبره زعيماً إسمياً لرعاياه ويعده رجلاً ذا قدسية موروثة، وكثيراً ما يعد المسلمون المتزمتون لحم الحيوان الذي يذبحه المسيحي ما لايصح ن يأكله لانه لايمكن الجزم بأنه حلال ولكن إذا ذبح بيد أحد أفراد أسرة مار شمعون فلن يتردد أشد المسلمين تحرجاً من أكله وهو حلال له ولاسيما إذا نُحر بسكين معينة من جملة مورثات تلك الأسرة (٢٥٣). الحقيقة لايمكن تعليل ما يذكره ويگرام إلا بأحد أمرين أو كليهما معاً وان كنا لا نجد فيما يذكره قياساً لمناطق أخرى من كُردستان.

فالأمر الأول أن المسلمين الكُرد في حكاري ربما كانوا يميزون بين المسيحي الفرد ورموز المسيحية أي ما يرمز إلى عيسى عليه السلام وهو نبي يقدسه الإسلام أما الأمر الثاني فإن كثيراً من المناطق يتعايش فيها المسلمون والمسيحيون ويرتبطون بوشائج عديدة إلا ما يذكره لهم رجال الدين أو ما كان محرماً ومنطقة حكاري من المناطق التي يتعايش فيها المسلمون والمسيحيون ومع ذلك ليس للمؤلف شواهد حول الموضوع الذي ذهب إليه ويگرام.

أما الدكتور روس الذي زار كُردستان في الثلث الأول من القرن التاسع عشر فقد لفتت إنتباهه بعض المعتقدات الكُردية، وطبيعي بعض هذه المعتقدات يعتقد بها الأكراد لا بصفتهم الكُردية حسب بل لكونهم مسلمين.

نقرأ في مذكرات فريزر ١٨٣٤ ما كتبه إلى زوجته حول تبجيل الكُرد للسادة ويعلمها أن المقصود بالسادة الأشخاص من نسل النبي محمد (ص) وان ما يتمتع به هؤلاء السادة من إحترام هو أكثر من كل الطبقات الأخرى ويعتقد الكُرد بتمتع هؤلاء بمواهب خاصة مستمدة من أصلها المقدس، ومن هذه المواهب التي تدعي بها بعض أسر السادة وليس كلها هي القدرة على تحمل النار أو أن النار لاتحرقهم وان بعضهم يزعم بقدرته الجلوس في تنور محمر وملتهب دون أن يحترق ويكومون النار على يديه ويصيح (انه بردان) ويخرج من التنور سالماً غير مصاب بأذى (٣١-٣٢). يحدثنا روس بإسهاب عن مجادلته لبعض الأشخاص في مجلس باشا السليمانية عن صحة هذه الادعاءات وعلى ما يبدو أن ما يحير فريزو انه لم يجد أحدا من الجالسين كان قد رأى بام عينه شخصاً في تنور ملتهب أو يرفع قطعة حديد محمرة بيده ولكنهم كانوا يعولون على السماع وأصر فريزو انه لايمكن أن يصدق ما لم ير بنفسه وان هو يذكر أن أحد الجالسين قد أوضح له بأنه قد رأى من يضع الحجر في فمه وفريزو يعد ذلك ضرباً من ضروب الاحتيال (٣٣). ومن المعتقدات التي لاحظها إعتقاد الكُرد بالنذر وما يسمى بـ(النذركاه) أي أماكن النذر فقد بين له دليله الذي يرافقه في رحلته أن الشخص المريض إذا رأى في الحلم أحد الرجال الصالحين أو أحداً من الأئمة في مكان ما فإنه أي ذلك المريض أو ربما صاحب الحاجة يقوم بتخليد ذلك المكان بوضع أكداس من الحجارة اعترافاً

بالجميل وارشاداً للآخرين عن هذه البقعة المقدسة فيؤدي هذا إلى مجيء مرضى آخرين واضافة الحجارة إلى هذا الكدس وهكذا يكبر الركام وكثيراً ما يقطع الذين حصلوا على الشفاء من هذا الموقع المقدس قطعة من ملابسهم يعلقونها في أغصان الشجيرات النابتة من بين صخور هذا الركام اعترافاً وإقراراً بجميل هذا الرجل الصالح (٤٤) ومن مشاهدات الدكتور روس الواردة في مذكرات فريزو في العقيدة العلاجية عند الكُرد أن سكان إحدى القرى الكُردية كانوا يأتون بأطفالهم إلى امرأة عجوز وهي تنفخ بصلواتها وتمنح الأطفال المرضى خرقاً بالية وقطع النقود التي كانت تباركها فتعلق في رؤوس الأطفال بالشمع فضلاً عن الرقى والتعاويذ والتي تعلق في رؤوس الأطفال أيضاً (١٩).

والحقيقة نحن نرى أن هذه المعتقدات في علاج المرضى أمراً طبيعياً في مجتمعات مختلفة لا في عصرنا هذا بل في عصرهم. لقد كان روس طبيباً جراحاً في بغداد جاء خصيصاً لشؤون المقيمية البريطانية والجالية البريطانية ولايمكن أن نجد طبيباً واحداً يملك خبرة طبية حديثة بمفهوم ومستوى تلك الحقبة في كُردستان. ربما كان هناك أطباء في استانبول أو طهران أو حتى في بعض المدن الكبيرة الأخرى... بغداد والموصل. أما في كُردستان فلا وجود لطبيب والأدنى من ذلك إذ وجد طبيب عن طريق الصدفة حاربه المشعوذون لا بل أهل المدينة أنفسهم وهذا ما جرى مع الأطباء الذين زاروا السليمانية وذكرهم سون.

لذلك من الطبيعي أن يتجه المريض صوب أي جهة يتوسم فيها الشفاء وليس للأم والأب إلاتعليق قطعة النقود أو التعويذة بالشمع في رأس طفلها الذي يحتضر أو الذي كان محكوماً بالإسهال (حتى الموت) فما علاج وما من خبرة علمية... وعندما لاتفيد التعويذة يبحث المريض لنفسه أو الأب لابنه عن مخرج آخر، رجل صالح يتراءى له... وربما كان هذا عاملا نفسياً جديراً في تقوية معنويات المريض... لم لا؟

وهناك، مثال آخر له علاقة بموضوع الباراسايكولوجي، فقد ثبت أن أشخاصا يتمتعون بقدرات خاصة يستطيعون من خلالها شفاء بعض الأمراض وليس كلها ويختلف هؤلاء في تخصصاتهم الخارقية هذه على معالجة المريض ومثلما يمتلك البعض القدرة على تخليص المريض من آلامه أو مرضه فهناك من يستطيع أن ينزل الآلام بغيره وحتى عبر مسافات تمتد مئات أو آلاف الأميال وان موضوع "إصابة العين" من الموضوعات التي دخلت ميدان الباراسايكولوجي وهناك حالات مسجلة حديثة ودراسات ميدانية. والحقيقة فإن أهم التعليلات لهذه الظواهر هي تمتع بعض الأشخاص بشحنات تشع من أدمغتهم فتؤثر في المرض وتقضي عليه وأخرى تؤثر في الشخص فتبليه بآفة أو مشكلة أو اضطراب نفسي أو عقلي أو كليهما معاً فيقع في ضائقة أو حادث.

مازال هذا (العلم) غير واضح ولكن آثاره موجودة وفيه مؤلفات وتجارب لايمكن تجاهلها، ويعتقد آن كل البشر كانوا يمتلكون هذه القدرات ولكنها اضمحلت وبقيت عند البعض عبر آلاف السنين من عمر البشرية. لذا قد تكون العجوز التي يتحدث عنها الدكتور روس واحدة من هذا النمط البشري الذي له قدرة باراسايكولوجية مؤثرة في مرض المريض وربما ما قيل عن قدرة الشيخ الفلاني وقدراته الخارقة في شفاء المرضى التي وهبها الله له، ربما أي هذه القدرة ما هي إلا قدرة باراسايكولوجية لاتمت إلى الدين الاسلامي بصلة والدليل على هذا أن مثل هذه القدرات موجودة عند غير المسلمين.

إن إحدى التجارب التي جرت في الاتحاد السوفييتي من قبل أشخاص لا صلة لهم بأي دين استطاعوا التأثير في شفاء بعض المرضى مثلما استطاعوا إحلال آلام شديدة في أمعاء بعض الأصحاء وبين مدينتي موسكو ولينين كراد أي أن المريض كان في لينين كراد والمعالج الباراسايكولوجي كان في موسكو، ولم يكن المعالج ولا المريض من المتدينين بأية ديانة.

وان هذه القدرات أحياناً تكون دائمية وقد تفارق الفرد فيصبح عاجزاً عن شفاء المريض وقد يكون دعياً.إن هذه الأمور بمجملها يجب أن تراعى وتؤخذ بنظر الإعتبار عندما نقرأ مذكرات سون أو روس عن موضوع الأطباء والمعالجة بالتعاويذ أو بالمنزلة الدينية والكرامات أنها ليست مسألة تعاويذ ولاتمائم ولا قطع نقود تلصق في رأس الطفل ولا كرامات ممنوحة لشيخ ولم تمنح للنبي (ص) !. أنها قدرات خاصة قد يمتلكها البعض حقيقة وقد يدعي البعض الآخر إمتلاكها، وهذا الأخير عليه أن يمتلك مهارة التمويه وقد يحالفه الحظ مرة ولايحالفه مرات والعكس ممكن.

يذكر إدموندز إن الكُرد البسطاء اعتادوا إغراق التقديس على وليهم المختار. كما يشير إدموندز إلى كتاب (بيره ميرد) الشاعر الكُردي المعروف عن كرامات الشيخ (كاك أحمد)، إن الكُرد يعتقدون بالكرامات أي بقدرات خاصة خارقة لاتتأتى للناس العاديين وهذه القدرات يسبغها الله عليهم لصلاحهم وسمو منزلتهم الدينية (٧٣).

ويشير إدموندز إلى إن موضوع الكرامات ليس جزءاً أساسياً عند البعض ومع ذلك فإن هذه الكرامات لكي تكون مقنعة يجب أن تكون قائمة على دليل يقنع الناس بحيازة الشيخ على القوة الخارقة والمواهب الرفيعة التي تجلب الإحترام عند الكُرد، المقدرة على جعل الإنسان محصناً من الطلقات النارية من خلال تعويذة يحملها الرجل أو يخيطها في ثوبه وتسمى هذه التعويذة في كُردستان بـ(كوللە بند) أي حاجز الرصاص* (٧٤).

يذكر إدموندز إن (كاكه أحمد الشيخ*) كان قد أسبغ على نفسه موهبة الكرامات ويصفها

* لانودّ الخروج عن الموضوع، وبإمكان القاريء أن يقرأ الكتب المعنية بالباراسايكولوجي ففيها من التجارب=

بـ(المهابة المتأتية من ضروب الدجل والشعوذة التي أتاها). ومن الامور التي جاء ذكرها في مذكرات إدموندز وقد أخذها بدوره من كتاب الشاعر بيره ميرد أن الشيخ كتب رسالة للملكة فكتوريا يتوسط ويرجو العفو عن راجا هندي كان قد ارتكب خطأ فلم تكتف الملكة بالعفو عنه بل كتبت للشيخ رسالة جوابية (٧٣)

ترى هل كتبت الملكة رسالة فعلاً إلى كاك أحمد الشيخ وأين هي...؟ نحن لانستبعد ذلك فمن الجائز أن ترد الملكة على رسالة شيخ طريقة في الشرق انها جزء من الدبلوماسية الاسترضائية لبريطانيا في الشرق فهذا ليس بالأمر الغريب، لكن الغريب أن يتوسط شيخ مسلم (متعصب) لراجا هندي إذ ليس هناك ما يدل على إنه مسلم (أي الراجا الهندي) عند امرأة مسيحية أي ملكة بريطانية.

على أي حال لانعرف ظروف القضية ومدى صحتها وهذا ليس مهماً في علم النفس الإجتماعي بقدر ما تكمن الأهمية في مدى تقبل الشخصية الكُردية ومن ثم المجتمع الكُردي للغيبيات المرتبطة بإنسان ما وقدراته الخارقة.

وكذلك يسوق إدموندز قصصاً أخرى عن المواهب الخارقة للشيخ منها قصة إنقاذه لطالب الدين المظلوم الذي حكم بالإعدام رمياً بالرصاص بعد أن أتهم بإغواء فتاة جميلة ظلماً وعلى الرغم من الرصاص نهض الشيخ الذي أحاط الطالب بجبته لحظة إطلاق الرصاص فكان لهذه القصة دويها في المجتمع الكُردي وبخاصة عند باشا السليمانية (٧٤).

ومن القصص التي ارتبط بها اسم الشيخ بالسلطان عبد الحميد أن قصة إنقاذ هذا الفتى التي ذكرناها تواً انتقلت إلى السلطان عبد الحميد فدعا السلطان كاك أحمد لزيارة استانبول فاعتذر عن الزيارة ولكنه أرسل (الكُلله بند) أي التعويذة بيد مفتي السليمانية ولكن حزباً في استانبول يعادي الطريقة القادرية أقنع السلطان أن يجرب قوة هذا الحجاب أو التعويذة في ثور خصي وبقدرة الله وقوة التعويذة لم يؤثر الرصاص على الثور ولما عاد السلطان إلى حجرته وهي خلوة لايدخلها أحد قط وجد رسالة بخط يد كاك أحمد الشيخ وبأسلوبه ملقاة على الطاولة وتتضمن لوماً وعتاباً للسلطان لانه تجاهل التعليمات وجرب قوة الحجاب في غرض صغير تافه (٧٤) كيف وصلت الرسالة؟ وكيف وضعت الرسالة على طاولة السلطان؟ سيبقى سراً من أسرار الشرق...

ويعلق إدموندز على هذه القصة إن الرسالة بددت كل ما قد بقي من شك في الضمير

=المثبتة والتي تبدو مدهشة على الرغم من المصداقية العالية للتجربة أو للكتاب.

* كاك أحمد الشيخ: نجل الشيخ معروف النودهي البرزنجي، ولمسجده في السليمانية شهرة، وذكر عنه كونه صاحب كرامات.

الملكي (٧٥). أما القصة التي خلدت العقيدة عند السلطان ثم انعكست على الآخرين فهي محاولة الأرمن تفجير قنبلة مؤقتة وضعت أمام مدخل جامع الحميدية وكانت قد نظمت بحيث تتفجر تحت قدمي السلطان عند دخوله وتطاير حطام سبعين أو ثمانين مركبة في الهواء مع أشلاء أشخاص يتراوح عددهم بين ١٠٠-٢٠٠ شخصاً بفعل الانفجار ولكن لم تنزف قطرة دم من جياد العربة الملكية ودخل السلطان وهو يصيح (اني البس كُلله بند -أي تعويذة كاك أحمد- فكيف يمكن أن تلحق القنبلة ضرراً بي؟) (٧٥) ترى هل كان للتعويذة من دور في مثل هذه القصة المثيرة للدهشة التي يحدثنا بها إدموندز أم إنها محض صدفة ويبقى السؤال سؤالاً إسلاميا هنا. أليست الأعمار بيد الله أم بيد بعض من عبيده؟؟ ثم أليس لكل إمريء أجل مسمى ومقدر من عند الله مسبقاً فهل لإنسان ما أن يؤخر أو يقدم في المشيئة الإلهية؟.

لايمكن الخوض في نقاش معمق في هذا المجال لان في ذلك خروجاً عن حدود هذا الكتاب وغايته. على الرغم من أننا تحدثنا عن موضوعة الباراسايكولوجي بما فيه الكفاية وبعد أن أورد إدموندز قصة إنقاذ كاك أحمد الشيخ يذكر قصة قبيلة الهماوند الكُردية المنفية إلى طرابلس في شمال أفريقيا وجعلهم يبلغون عبارة على النهر لنقلهم وهم في طريق غدوهم إلى كُردستان فراراً من النفي وقطع الطريق على متعقبيهم بطريقة ربما كانت شبيهة بمعجزة النبي موسى عليه السلام في شقه للبحر (٧٥-٧٦).

يعلق إدموندز على ذلك، أن كثيراً من الكُرد يلازمهم مثل هذا الإيمان الساذج بأن لكل كردي الحق في تدخل ولي كردي لمصلحته ضد أي شخص. بعبارة أخرى يريد إدموندز أن يؤكد نزعة الكُردي بالتمسك بولي ينصره في هذه الحياة. الحقيقة أن ما لاحظه إدموندز في أوائل القرن العشرين مازال ماثلاً في كُردستان ونحن قد غادرنا القرن العشرين فالنزعة الماثلة عند كل كردي التي أشار إليها إدموندز مازالت قائمة ونعتقد إن الظلم والجور الداخلي والأجنبي والإقطاعي والسياسي ساعد ومازال، يساعد كثيراً أبناء المجتمع الكُردي للبحث عن أي شكل من أشكال الخلاص فالإنسان مجبول على نزعة البقاء والسعي نحو اللذة والإبتعاد عن الألم وخشية الزوال. إن قهر الإنسان للإنسان يلجئه للتمسك بأي وسيلة للخلاص حتى إن ساوره الشك في مصداقيتها.

وبازاء طبقات من الظلم المشيد على الفرد الكُردي لابد من لجوء روحي هو ما يشبه اليوم أو في لغة العصر والسياسة باللجوء الإنساني واللجوء السياسي، فكان الشيخ يَعد هذا (اللاجئ الروحي) بالخلاص لا بل بأنه بلغ ما لم يبلغه الآخرون فقد أصبح في حرص مكيَن من خلال تعويذة يشدها في ساعده أو ماء مقروء عليه يشربه أو زيارة سنوية أو نصف سنوية لتكية الشيخ وتجديد الولاء فضلاً عن الجنة التي تنتظره فتتخفف الآمه.

إننا نرى في كل هذا ردود فعل نفسية (طبيعية) كما أشرنا تواً أي النزوع المغروس في الجبلة الإنسانية للسعي نحو اللذة والإبتعاد عن الألم كما أشرنا سابقاً.

إذا كان الفرد (السوفيتي) بعد سبعين عاماً من التجربة المادية في التفكير والتعامل ينزع إلى الخوارق حتى أن الخارقية أي الباراسايكولوجي نما في الاتحاد السوفيتي أكثر من نموه في أية دولة ليبرالية غربية أو في أي بقعة شرقية متخلفة دليل على مسألة (اللجوء الروحي) لبني البشر وهي رياضة نفسية سعيدة من وجهة نظرنا مادام الفرد مؤمناً وسعيداً بها فما الضير في ذلك؟

إن من الإنطباعات التي يسجلها إدموندز عن معتقدات المريدين بشيخهم أينما كان هذا الشيخ وان كانت طريقة ومن خلال القصص التي استمع إليها إدموندز في هذا المجال مثل التنبؤ بالغيب وظهور الشيخ لمريديه في الحلم والعلم بالتقاعس عن واجبات الضيافة وعن لحم لايحل أكله لان الحيوان لم يذبح حسب قواعد الشرع الخ من الموضوعات التي يذكرها إدموندز في هذا المجال. ولاينسى إدموندز ذكر الصراع بين الطريقتين أو المعتقدين الشائعين في كُردستان القادرية والنقشبندية وما رافق هذا الصراع من حوادث تقترب من الأساطير (٧٥).

وعندما يتحدث إدموندز عن ذكرياته في (مَركه) مركز قضاء بشدر* ويصفها من أجمل القرى في القضاء لكنه يخبرنا عن ليلة عقدت في مساجدها الأربع حلقات ذكر في أن واحد فكانت تتردد شهادة (لا إله إلا الله) تباعاً ويرد صداها في أرجاء البساتين بتساوق وانسجام لحني رخيم، ويعلق إدموندز أن في ذلك الزمن كان شيوخ القادرية في معظم أنحاء السليمانية قد نظموا حملة صوفية نشيطة ولذا كان من المألوف أن يسمع المرء صيحات سريعة لشخص هداه الله أو لمريد صوفي وهو يهرول في الأزقة بين المنازل مردداً عبارات الذكر كالمجذوب (٢١٥).

ولا نخفي صورة مؤلمة حقاً يذكرها إدموندز عن جماعة أباحت لنفسها ما لم يبحه الإسلام وما لم تبحه كل الطقوس والتقاليد الكُردية عبر تاريخها إذ يؤكد على ظهور حالة شاذة في قرية (!)** التي كان يسكنها (!) وقد أسس طريقة تستند على التعاليم المعروفة بـ(رقصات الصوفية). إن هذه الجماعة تمادت إلى حد الخروج عن معظم آداب سلوك الصوفية فقد شوهد أتباع هذه الطريقة وهم يدفنون أجسامهم حتى الاعناق في أكداس روث الحيوانات وهم يتلون الادعية. ووجد نوع من شيوعية الاموال وبضمنها النساء وراحت جماعات صغيرة من كلا

* بشدر: إسم عشيرة وقضاء تابع الى محافظة السليمانية.
** آثرنا عدم ذكر إسم القرية والإسم هنا، وقد وردا في المصدر.

الجنسين تتجول في الروابي والاكام بعد حلول الظلام كما قاموا بحفلات (الاستحمام) المختلطة في المساجد فكانت كما يذكر إدموندز مظهراً منتظماً من مظاهر الطقوس وكثيراً ما كانت تسحب الكلاب إلى الحوض مع المستحمين، ويعلق إدموندز على هذا أن الكلب المبلل يعد نجساً على المذهب الحنفي.

والحقيقة فإن كل الكُرد يميلون إلى التقزز من الكلب في ملامسته لطعامهم أو شرابهم أو حتى أيديهم بالرغم من إن ما من قرية تستغني عن خدمات الكلاب الحراسية فالأمر غير مقصور على المذهب الحنفي كما يذكر إدموندز.

وهناك أمور أخرى قامت بها هذه الجماعة تعد كفراً وخرقاً اسلامياً.

يؤكد إدموندز أنه تم استدعاء شيوخ وأدلة الصوفية إلى السليمانية للتحقيق وقالوا أنهم شخصياً لايقرون مثل هذا الشذوذ على أنهم حاولوا الاعتذار لذلك بقولهم أن ليس بجناح على المريد إذا قام وهو في حالة الوجد (السكر) ولفترة محدودة بتصرفات مخالفة للسلوك والأخلاق والدين.

يعلق إدموندز على هذا بأنه لايستطيع تأييد التفاصيل ولكنه كما يذكر توجد بعض القرائن والدلائل الثابتة في التقارير الرسمية ويقترح إدموندز أن إنشاء المدارس ونشر التعليم هو أقوى دواء وأكثر فعالية في تقويم هذا الانحراف (١٨٧-١٨٨).

ويبدو إن ما قام به الشيخ المذكور من أمور لاتمت إلى صلب الدين الإسلامي ولا الى الديانات السماوية الأخرى لا بل إلى الديانات غير السماوية أيضاً هي من بدع البعض من الصوفية ممن شطوا وأغرقوا في الملذات الحسية تحت ذرائع ومصطلحات خرجت عن فلسفة الصوفية.وهذا ليس بالأمر الجديد في تاريخ التصوف، فنحن في كتابنا هذا لا نتهم الكل، أبداً هذا من جهة ومن جهة أخرى إن ما ذكره إدموندز عن هذه الظاهرة في إحدى قرى كُردستان وجدت في أصقاع عدة في العالم الإسلامي فعلى سبيل المثال لا الحصر هذا ابن حزم يذكر إن طائفة الصوفية قالوا: من بلغ الغاية القصوى من الولاية سقطت عنه كلها من الصلاة والصيام والزكاة وحلت له المحرمات كلها من الزنا والخمر وغير ذلك(٢٢٢).

وقد نقل الشاذلي في معرض الحديث عن التصوف والمجتمع عن عبد السلام الفاسي، أقوام يهتكون الشريعة ويحللون المحرمات ويظهرون أفعالاً تشبه خرق العادة، ويدعون أن ذلك مما خصهم به من البركات وإنما هم زنادقة أو مبتدعة(١٠٠).

وفي موقع آخر يذكر أن أساس هذا المأخذ أن التصوف مسلّم به وله قواعد معترف بها ولكن جهل الجاهلي متعمداً أو من غير عمد أدخل منه ما ليس فيه (٩٦).

وفي إعتقادنا إن هذه الحالات الشاذة التي لاحظها إدموندز أو ما لاحظه الناس في بعض تصرفات الصوفية لايمكن أن تكون تصرفات (عاقلة) مثلما لايمكن أن تكون (مقدسة) بموجب الشرع. إن ما نريد قوله هنا -وجهة نظرنا- أن هذه التصرفات كانت تقع تحت تأثير واحد من العوامل الآتية:

١- عامل لا أخلاقي واعي أي أنها موبقات واعية تماماً ولكن تحت ستار التصوف أو منحها تبريراً تصوفياً.

٢- أو أنها حالة من حالات افتقاد الشعور وسيطرة اللاشعور (العقل الباطن: اللاوعي) بسبب توافر الظرف الجمعي أي إجتماع مجموعة من الناس وسلوك الفرد ضمن الجماعة هو غير سلوكه الانفرادي، فقد يتورع الفرد أن يتعرى تمام العري على رصيف مسبح من المسابح إذا كان المسبح محاطاً بجمع من الناس الجالسين بكامل ألبستهم ولكنه سوف لن يتورع ويتعرى إذا ما شاركه في سلوكه هذا جمع من أشخاص. إن هذا يقودنا إلى مسألة الفرق بين السلوك الفردي والسلوك الجمعي اللاعقلي (الغوغائي) بفعل ما يسمى بالمشاركة الوجدانية حين يسهل على الدوافع الحبيسة أن تتحرر وحتى في المظاهرات السياسية المعارضة فإن ما يهتف به شخص ما من هتاف شجاع جداً وهو ضمن جماعة من المتظاهرين قد لايجرؤ على ذكر هذا الهتاف حتى همساً مع نفسه عندما يكون وحده أو مع صديق واحد وإن ما يعزز من هذا النمط من السلوك حضور "الرمز" الذي هو غالباً شخصية كارزمية مسيطرة.

ولعل مثال القسيس الأمريكي جيم جونز خير مثال لما نقول فقد استطاع هذا الرجل الديني تأسيس طائفة من البروتستانت في كاليفورنيا عام ١٩٦٣ بلغ عدد أفرادها ٣٠٠٠٠ ثلاثون ألفاً وأقام مجتمعاً أسمه مجتمع الحب والتعاون والإخاء لكن هذا الشخص في إحدى صلواته استطاع أن يقوم بحادثة انتحار جماعي لرجال ونساء وأطفال وكان عددهم في ذلك القداس ٤٠٠ نسمة أو أكثر بقليل وكان جيم جونز نفسه على رأس المنتحرين فقد قام بها وكأنها من شعائر طائفته. انه بلاشكّ جنون وقتي قد يكون سببه سيطرة اللاشعور أو قد يكون القسيس قد أخضع الجميع إلى قدراته ونفسه بما يشبه التنويم المغناطيسي وقد يكونوا قد تناولوا نوعاً من الترياق.

٣- أو نعتقد إن بعض الأعمال النابية والمشينة التي تذكر عن خروج بعض الصوفية عن ضوابط الخلق يعود إلى تناولهم الخمرة التي يجيز البعض منهم تناولها، وعادة يتناولونها سراً ثم يخرجون أو لتناولهم الحشيش -أو أي نوع من الترياق- فيجعلهم في حال يخرج بهم عن العرف والآداب والشرع.

إن مسألة الحشيش والصوفية ليست بالأمر الجديد - ونحن لانقصد الكل بل كل من أتى بفعل مشين بإسم الخصوصية الدينية الممنوحة له ولجماعته.

يذكر الدكتور زكي مبارك أن الحشيشة شاعت في البيئات الصوفية كما يحذر بوجوب الاحتراس من الآفات الأخلاقية التي تنشأ من مصاحبة أصحاب الأذواق- يقصد الصوفية- من هذا النمط ثم يؤكد أن الصوفية وبلاشكّ لهم أياد في نشر آفة الحشيشة بين الجماهير الفارسية والعراقية والشامية والمصرية (٣٢٥-٣٢٦).

يستعرض توما بوا المعتقدات الكُردية منذ اعتناق الكُرد للزرادشتية ويحاول أن يلقي ضوءاً على مفهوم الزرادشتية وعلى طقوس هذه الديانة وعندها النار رمز العدالة والنضال ضد قوى الشر فكل رجل عليه الخيار بين الخير والشر (أورمزد) و(أهريمن) وضرورة الاحسان إلى الحيوان والحكمة الزرادشتية قائمة على ثلاثة أركان (التفكير الجيد والكلام الطيب والعمل الحسن) (١٠٣).

ثم يستعرض توما بوا موضوع دخول الكُرد الإسلام وثوراتهم المتعددة ضد الخلفاء وجنودهم (١٠٥). بعدها يتحدث عن صقوس الديانة الإسلامية وهذه مسألة تشترك فيها الأقوام المسلمة كلها أي ليست خاصة بالكُرد وحدهم ثم يعرج على العقائد الصوفية التي ظهرت في كُردستان وكيف أن الكُرد عبروا عن نظرياتهم الصوفية وطرقهم التقشفية في قصائد عديدة لايفهمها إلا الندرة ويذكر توما بوا أن في الأشعار الرمزية دوماً عنصر المودة البشرية (١١١).

يحاول توما بوا أن يعطي أمثلة عن التعابير الرمزية في الأدب الصوفي ومن ثم تقاليد الارتقاء الصوفي. وهو يذكر كما ذكر من قبله المستشرقون والرحالة الطريقة القادرية نسبة إلى الشيخ عبد القادر الكيلاني وأسماء بعض عوائل المشايخ مثل الطالباني في كركوك والبريفكاني في بادينان ويحمل الرئيس العام لهذه الطريقة في بغداد لقب نقيب الأشراف (١١٢). كما يذكر الطريقة الثانية وهي النقشبندية ومؤسسها بهاء الدين من بخارى (١٣١٧-١٣٨٩) التي انتشرت في كُردستان على يد مولانا خالد. وعندما يقارن توما بوا بين الطريقتين يذكر إن شيوخ النقشبندية أكثر عدداً وأكثر نفوذاً من شيوخ القادرية. ويرى أكثر العوائل سلطة شيوخ شمدينان ونهري وبارزان وشيوخ طويلة (١١٢).

ويربط توما بوا بين عدد من الحركات الكُردية المسلحة وسلطة الشيوخ في إعلان الجهاد مثل الشيخ عبيدالله الشمزيني والشيخ سعيد بيران والشيخ محمود الحفيد والشيخ أحمد البارزاني(١١٣).

وتحت عنوان (الأكراد الهاربون من الإسلام) يقف توما بوا أمام بعض المذاهب التي يسميها بالمذاهب المنحرفة أي تلك التي تهربت من الإسلام، وأكثر هذه (المذاهب) من وجهة نظره يتمثل باليزيدية(١١٤)، الحقيقة نحن لسنا مع ما يذهب إليه توما بوا في تعريفه لليزيديين على أنهم في الأساس كانوا مسلمين صوفيين ومن المذهب السني ومتحيزين للخليفة يزيد الأول (٦٨٠-٦٨٣) (١١٥) بل أن اليزيديين هم بقايا الكُرد الزرادشتيين وان ما يعوّل عليه توما بوا من دخول بعض المصطلحات أو بعض أشكال الطقوس التي يؤديها اليزيديون اليوم لاتعني أنهم كانوا يدينون بالإسلام قدر ما تعني أن الحروب والويلات ومحاولات إدخالهم الإسلام وارتدادهم ومقاومتهم لذلك لابد وان أدخلت في ديانتهم وطقوسهم شيئاً من ديانات الجار وهذا أمر طبيعي ممكن أن تلقى ما يشبهه في كثير من الديانات المتجاورة في العالم لاسيّما إذا كانت الديانة صغيرة ومهددة من قبل ديانة كبيرة قوية واسعة.

وإن ما يدعيه البعض هنا وهناك لاسيّما من دعاة الزعامة اليزيدية على أنهم من الأمويين ويطلقون لقب (أموي) على أنفسهم فهي مسألة لاتخرج عن المداهنة السياسية لهذا النظام أو ذاك في المنطقة فأي قوم هذا الذي لغته الكُردية صرفة لا بل انه حفظ للكرد آلاف المفردات الكُردية التي ضاعت هنا وهناك - لكنها بقيت لديهم؟ وأي أمويين يرتدون زياً آرياً بحتاً إلا من أراد أن يكون (أموياً) فتخلى عن زيه أو ورث زيه عن جد أو أجداد تخلوا عن أزيائهم في حينه قهراً وليس اختياراً؟ وأي قوم هذا حفظ لنفسه ولكل الكُرد التقاليد والعادات التراثية من غناء ملحمي ورقص شعبي أصيل؟ ثم إن لليزيدية أمراء لايتنازلون عن كرديتهم وإعتزازهم بأصولهم الآرية قيد شعرة في العراق وفي تركيا وفي أرمينية وأوروبا. أنها مسألة التعريب أو التتريك أو التفريس مسألة عانى منها كل الكُرد عبر التاريخ وللأسف فإن بعض من ضعاف النفوس الكُرد يعزفون على هذا الوتر ويتكسبون من هذا العزف فذاك من أعاد نفسه إلى آل النعيم فغدا مقرباً والآخر يلوح ببرزنجيته (العربية!) وآخر يلوح بطائيته فيتقربون من السلطة فمنهم الوزير ومنهم الكبير ومنهم الشهير أنها سلعة على أية حال لا بل سلعة رائجة.

ويعرج توما بوا على مذهب كردي آخر يسمي أصحابه أنفسهم أهل الحق ويتسمون بتعصبهم الشيعي وقد ولد هذا المذهب في كُردستان وبلغ منطقة شهرزور وهورمان في منتصف القرن الحادي عشر عن طريق (مبارك شاه بابا خوشين) الذي ضم امرأة إلى أتباعه السبعة وهي فاطمة الهيفاء أخت الشاعر الكُردي المعروف بابا طاهر الهمداني (٦٣٥-١٠١٠) ويكن أهل الحق إحتراماً كبيراً لعلي ابن أبي طالب (رض) وذريته مع احتفائهم بعلاقات طيبة مع السنة إن الكاكائين الحاليين في العراق هم امتداد لهذا المذهب.

ويذكر توما بوا بعض طقوس أهل الحق فهم (يبجلون بابا يادكار وضريحه ويعد قبلة الحجاج وهم يدعون للأنبياء موسى وعيسى وبالأخص داود ويؤمنون بالمظاهر المتوارثة للألوهية وبالرقم ٧١ وكل مرة تظهر الألوهية بموكب من أربع أو خمس ملائكة ويؤمنون بالتقمص (تناسخ الأرواح) تماماً مثل اليزيدية والدروز (١١٦).

ثم يستعرض توما بوا بإختصار ذوي الرؤوس الحمر المتواجدين في الأناضول وديار بكر وخربوت ويتكلمون لهجة زازا ويسمون أنفسهم (علوي) وهم أيضاً من المتطرفين للشيعة. ليس لهم جوامع بل يزورهم مرشد(١١٧). ويؤمنون بوجود وسيط بين الله والبشر وهم (٥) ملائكة و١٢١ وزيراً لله و٤٠ نبياً وتجبى ضرائب دينية منهم ويتولى ذلك رؤسائهم الدينيين وهم (الداد) أو (السيد) ويصومون (١٢) يوماً لأجل ١٢ إماماً وثلاثة أيام أخرى قبل عيد الخضر ويصلون مرة واحدة في اليوم ويعبدون الشمس في شروقها وفي غروبها ويقدسون النار ويقدمون الضحايا إلى منابع الأنهار وليس لهم كتاب مقدس خاص بهم ولكنهم يبجلون القرآن والإنجيل والتوراة(١١٧-١١٨).

كذلك يتحدث توما بوا عن الشبك الذين يسكنون في ضواحي الموصل وهم مذهب على حد تعريف توما بوا خليط من اليزيدية والشيعة(١١٨).

ويعرج توما بوا على المعتقدات ذات الطابع الخرافي التي وجد أن الكُرد يعتقدون بها. والحقيقة فإن ما يذكره توما بوا هنا ليس بالضرورة أن يكون معتقداً عاماً، إذ رب خرافة سائدة في صقع من أصقاع كُردستان قد لاتكون سائدة في مناطق أخرى وهكذا.

ومن إنطباعات توما بوا فضلاً عن الإشارة إلى وجهات نظر السواح الذين زاروا كُردستان أنهم يتفقون على حقيقة أن الكُردي يؤمن بإستخدام التعاويذ والطلاسم وان كثيراً من المعتقدات التافهة منتشرة بين الكُرد. وكذلك يذكر توما بوا أن النسوة الكُرديات بصورة خاصة يعتقدون بقراءة البخت والفال وان الغجريات يقمن بهذا الدور ويستخدمن مختلف الأحابيل والطرق (١٢٣).

كتب توما بوا عن المعتقدات المرتبطة بالولادة وغيرها فيذكر أن في السليمانية تحت عبء الحوادث المتوقعة كان على المرأة الحامل أن تحمل نوعاً من الطلاسم والشائع أن المرأة التي تستنتخ هذه التميمة لن تنجب أطفالا! (طبعاً إن كاتب التميمة سيخسر إذا ما استنسخت التمائم) وكذلك يذكر أن في حالة تعسر الولادة يلجأون إلى الحيل والذرائع الباطلة والخزعبلات ويأتون بحجر وقد كتبت عليه بعض الأدعية ويوضع على ظهر الحامل. أما في قبيلة شمزينان ففي حالة عسر الولادة يوضع سيف(خان لَب زيرين) أي ذو الكف الذهبي على فراش المرأة وهو بطل ملحمة دمدم الكُردية الباسلة الشهيرة ويذكر بوا أن في بعض المناطق من

كُردستان يحاولون منع الشر عن الوليد الجديد فحالما تلد المرأة يضعون على فراشها مصحفاً وسيفاً وقطعة حديد وتعاويذ أخرى لتجنب وقوع الشر وإذا كان الوليد صبياً فإن رجال العائلة يحرسونه ليل نهار طوال أسبوع في غرفة الولادة وخلال هذه المدة لايفسح المجال لخروج المرأة التي ولدت أو النساء الحاضرات أثناء الولادة ولايمكن حتى جلب أي شيء إلى الغرفة وكذلك يمنع دخول النساء غير النظيفات للإعتقاد بأنهن يجلبن التعاسة (٦٤-٦٥-١٢٤) ونعتقد أن بعض هذه الطقوس تمتد إلى التعاليم الزرادشتية.

وفي موضوع المعتقدات أيضاً تذكر مدام شانتر أن للنساء بصورة خاصة إيماناً عميقاً بقراءة الحظ ويقبلن على الغجريات اللواتي يمسكن برشاقة عظام كتف خروف أو الرمل أو طرق التنجيم الأخرى. ومن المعتقدات التي تسود الوسط النسوي بالعيون الحسود وترى مدام شانتر أن المرأة الكُردية مثل سائر النسوة الشرقيات تحاول اتقاء العين الشريرة وكذلك تشير إلى المعتقدات ذات العلاقة بالولادة والنفاس وقد ذكرنا بعضها وهي تضيف بعض أشكال المعتقدات الأخرى مثل عدم جواز زيارة امرأة نفساء لم يمر على ولادتها (٤٠) يوماً بعد لامرأة نفساء أخرى والزيارة تعد إساءة، وإذا التقت امرأتان أنجبتا قبل أقل من أربعين يوماً عن طريق الصدفة فعليها تبديل أبرتيهما وطفليهما ثم تعودان معاً دون أن تتقدم إحداهما على الأخرى...والنسوة الكُرديات يستخدمن التمائم والتعاويذ وهناك من يعدها لهن مقابل مبلغ وتعلقنها كقلائد... هذا ما ذكره توما بوا عن مدام شانتر (١٢٣).

إننا لانعتقد إن مثل هذا الإعتقاد سائد بين كل النسوة الكُرديات مثلما لانعتقد أن مثل هذه المعتقدات راسخة لحد الآن وبالكثافة نفسها التي كانت عليها في السابق وتعليقاً على ما جاء في ملاحظات توما بوا هنا يجب أن لا ننسى حقيقة سياسية دينية وهي إن الوضع السياسي لكُردستان وعدم تمتعها بكيان قومي مستقل ساعد كثيراً في تخلخل بعض المعتقدات أو الطقوس وأشكال من الشعوذة من خلال رجال الدين ممن احترموا مهنة التعاويذ والطلاسم والغيبيات فرجل الدين الكُردي في إيران يستمد (علمه) في هذا المهنة من رجال الدين الفرس لينقلها إلى رجال الدين الكُرد في إيران وهؤلاء بدورهم يمنحوها إلى رجال الدين الكُرد في العراق الذين بدورهم قد استلموا من (رجال الدين) في تركيا ما استلمه هؤلاء من رجال الدين الترك ثم يأتي دور رجال الدين العرب في العراق ليمدوا رجال الدين الكُرد في العراق ما لديهم من بضاعة شعوذة لينقلها هؤلاء إلى رجال الدين الكُرد في تركيا وإيران وهكذا تجري عملية (تبادل الخبرات) على الساحة الكُردية بسبب التجزئة وبالرغم مما تقدم نقول أن كُردستان لاتزال بخير في هذا الجانب قياساً لما يجري في الشرق، فالكُرد من وجهة نظرنا هم أقل إقبالاً على الشعوذة من الشعوب الشرقية ولعل الجذور الزرادشتية المحاربة

للسحر والطلاسم مازالت تؤدي دورها اللاشعوري في العقل الجمعي الكُردي فعلى حد علمنا نحن لم نر في المدن الكُردية مكاتب تتصدرها لافتات أو مكاتب بدون لافتات يدعي أصحابها القدرة على قراءة الطالع والماضي والحاضر والمستقبل وحل المشكلات النفسية (وفي هذه العبارة الأخيرة إيماءة إلى حل مشاكل العشق وجعل الحبيبة تركض وراء عاشقها بعد صدودها عنه) نحن لا ننكر وجودها ولكننا نؤمن بانخفاض نسبتها في كُردستان.

ومع كل ما تقدم نجد المعتقدات الملازمة للحظ ومعرفة المستقبل لاتزال فاعلة حتى في مجتمعات بلغت شأواً متقدماً من الحضارة، ومازالت الحقول المعنية بالحظوظ والأبراج من الحقول المقروءة لا بل بدأت الإذاعات وأجهزة التلفاز تقدم برامج تعني بالحظ والتنجيم فذاك يمعن في بلورة أمامه ويطلب من المشاهد عبر البحار والقارات أن يركز ذهنه معه ليقرأ له طالعه!

يشير توما بوا إلى إعتقادات الكُرد بالحوريات (بَري) وكذلك الجن، الجن الشرير والجن الخير لكن توما يذكر أن مثل هذا المعتقد هو ليس لصيقاً بالكُرد وحدهم في المنطقة بل يؤمن به الآشوريون أيضاً وبالرغم من إختلاف الديانة مع اليزيدية فإن اليزيديين أيضاً يؤمنون بمسألة الحوريات والجن(١١٩).

وهناك من يعتقد إن بالإمكان التزوج من هذه الحوريات وهناك من يرى أمثلة عن مثل هذه الزيجات في كُردستان (١٢٠).

أما الإيمان بوجود حيوانات مقدسة فهي من المعتقدات الشائعة في كُردستان على ما يذكر توما بوا، فالديك يوقظ الشمس ويحمل السعادة للمتزوجين حديثاً أما الطاووس فهو يرمز إلى الملائكة عند اليزيدية.

ومن المعتقدات والمسائل التي تجذب الإنتباه الهواة ممن يمسكون بالأفاعي لاسيّما عند اليزيدية وبعضهم من له القدرة على(ابتلاع أفعى) والحقيقة نحن لم نسمع بمثل هذه (الفعالية) عند الكُرد ولكن يبدو أن توما بوا قد شاهدها أو سمعها عن البعض، وبعض الشيوخ لديهم القدرة على تدجين هذه الافاعي.

ومن الحيوانات الغريبة في نظر الكُرد الحرباء التي تسمى في كُردستان (مارى اسمان) أي ثعبان السماء وسبب الغرابة لدى الكُرد أنهم لايرون هذا الحيوان يأكل أو يشرب قط لذا فإن إعتقادهم أن هذا الأفعى ولد في السماء وسقط منها يوم الحظ.

كما وينظر الكُرد إلى بعض النباتات الموجودة في كُردستان بعين الغرابة، فهناك (تفاح الجن) وهو مقوي للقدرات الجنسية، له أوراق فضية تلمع خلال الليل وعند الاقتراب منه

يحاول أن يختفي وهو يبقى دون حراك إذا أصابته قطرة بول امرأة. كما ويذكر أن الكُرد يتحدثون عن نبات إذا أمسك به أحدثت جذوره أصوات وإذا إجتث أحدهم هذا النبات فانه يسقط ميتاً لذلك يعمد الكُرد إلى الحفر حول النبات ثم يربطون الجذور بطرف حبل يكون الطرف الآخر مشدوداً برقبة كلب ثم يبتعدون قدر المستطاع ويرمون الكلب بالحجارة فإذا ما ركض الكلب وكانت الجذور قد اقتلعت يسقط الكلب ميتاً لقد أخذ توما بوا قصة هذا النبات عن كامبانيل كما إن هناك نبات يذكره توما بوا أن من يشمه يصاب بالعمى حالاً وهو نبات رفيع الشكل وينمو في العمادية ولكن يوجد نبات آخر يعد ترياقاً أو مضاداً لهذا النبات (١٢١-١٢٢).

وما دمنا في مجال الحيوانات والنباتات المقدسة لابد من عرض ما ذكره هوبارد من قصة طريفة عن معتقدات ربما أخذت طابع التناسخ أو التقمص، إذ يذكر عندما كان في منطقة هاورمان بلغ إلى بركة ماء محوطة تتزود بالماء مباشرة من النبع الذي يصب فيها ماء رائق، ووجد في البركة بعض الاسماك وكان هناك بالقرب من البركة بعض الاشخاص الكُرد، فسألهم هوبارد بواسطة مترجمه الفارسي الذي كان يجيد قليلاً من الكُردية، عن عائدية هذه الاسماك في البركة فأجابوا أنها تعود لـ(الأمام) الذي كان قد توفي. وقد رأى هوبارد أن هذا كاف لأن يصطاد السمك فما كان منه إلا وأخرج عدة الصيد والقم الشوكة بقطعة من خبز ولم يلبث أن أصطاد ثلاث سمكات جيدات طرحهم هوبارد على حافة البركة والأكراد ينظرون اليه شزراً وباستنكار شديد ويقولون أن هذا السمك (شخص) وحسب الترجمة فهم هوبارد أن (شخص) تعني (شخصي) فقال لهم بمجرد أن أرى صاحب السمكات سأدفع له، ولكنه عرف من بعد أن الكلمة لاتعني (شخصي) بل تعني شخص بعد أن وصل عدد من الرجال الآخرين وأفهموه الموضوع، فالسمكات أنفسها في إعتقادهم أشخاص (بشر) لا بل هي الإمام نفسه.

إن هوبارد يقول بعد أن عرف حقيقة إعتقاد هؤلاء الناس أن الامام كان قد مات ولايعرف كم مضى على وفاته من السنين أو القرون ولكنه كان قد دفن بالقرب من البركة وبطريقة لايمكن توضيحها -على حد تعبير هوبارد- فإن روح الامام قد حلّت في هذه الأسماك. ومضى الوقت بالشرح حتى وجد أن هذه السمكات الثلاث (المسكينات) قد لفظن أنفاسهن وأصبح الوقت متأخراً لمعالجة الموقف أو إصلاح (الجريمة)، كما وجد في ذات الوقت أنها مسألة تدعو للأسف أن يخسر المرء هذه السمكات وشرع يطهو السمك وكما يقول سواء كانت روحاً أم لم تكن فقد كانت لذيذة جداً.

لقد انقسم الأكراد إلى قسمين إزاء هذا الموقف المرعب الذي شاهدوه فمنهم من رأى فيه فعل التدنيس. وقسم وجد فيه نصف ذنب ينطوي على تهور ووقاحة ويضيف هوبارد أن الشك

بدأ يساوره أزاء شاعر هؤلاء الحضور فقد أخذوا ينتظرون بفضول كبير ما لذي سيحل بشخص أكل الإمام.

يقول هوبارد، لو كنت أملك قليلاً من القدرة على تكلم الكُردية لاستطعت أن أخرج بنتيجة معهم والتوصل إلى معتقداتهم الـ(ما وراء الطبيعة) فقد فشلت في معرفة كيفية وصول هذه الأسماك إلى هذه البركة وكيف تستطيعه هذه الأسماك البقاء في هذا المجال الضيق ويعلق هوبارد من بعد قائلاً لم أحصل على عقاب سريع وربما انتقمت مني السماء بعد (٥-٢٢٤)

وتذكر مدام شانتر الذي أقتبس توما بوا منها إنطباعها عن معتقدات الكُرد بالكواكب والأجرام السماوية منهم وتعد شانتر هذه المعتقدات (آراء غربية) فهم أي الكُرد كما تذكر شانتر يعدون القمر والشمس كأخ وأخت يتبع أحدهما الآخر دائماً فالقمر هو أخ الشمس ويحدث كسوف الشمس بسبب هذه الأخت المدللة.(١٢٢)

الحقيقة أن ما تقدم من مشاهدات الرحالة والمستشرقين في البيئة الكُردية يقع ضمن موضوع التوتمية. أن موضوع إضفاء طابع قدسي على حيوان أو نبات من الأمور التي استرعت ملاحظات علماء الأنثروبولوجي وعلماء النفس الديني في محاولاتهم تتبع نشوء الديانات في الأزمنة الغابرة لدى الشعوب. وقد أطلقت على هذه الظاهرة مصطلح التوتمية. إن التوتم يمكن أن يكون حيواناً أو نباتاً تتخذه القبيلة أو القوم رمزاً مقدساً وليس من الشائع أن يكون التوتم من غير الحيوان أو النبات أي الجمادات. ويذكر بنتون أن التوتمية مرحلة من مراحل نشوء الديانات البدائية وقد عثر على آثار التوتمية أو بقاياها في أماكن مختلفة من العالم ولكن بنسب متفاوتة في مدى انتشار التوتمية(٧٢).

ومما تقدم ومن خلال دراسة كل أشكال التغيرات الإجتماعية نجد أن بعض الأشياء التي كانت ملازمة لحياة المجتمع لاتنقرض تماماً بل تبقى أو يبقى ما يرمز لها كعقيدة وليس كدين وربما كدين في بعض الامثلة. لذا قد لانستغرب من إضفاء مشاعر أو انفعالات تتسم بالقدسية أوالرهبة المقدسة على حيوان ما أو نبات ما عند هذا الشعب أو ذاك... إنها من وجهة نظرنا بقايا التوتمية أو ما يشبه التوتمية أي تقديس الجمادات مثل الصخور التي أحالها الإنسان من بعد إلى أصنام. فهذه مجموعة ترى في الديك مثار انفعال روحي ومجموعة أخرى ترى في الطاووس شيئاً مقدساً وأخرى ترى في قطعة صخر مثار تقديس وأخرى تجد في نبات ما قداسة أو تتوهم فيه روحاً مقدسة.

ومن التوتميات المتعلقة بالجمادات تلك الأسطورة التي رواها مارك سايكس في إحدى رحلاته قبل قرن من الزمان إذ يذكر وهو في طريقه إلى دوكان ترأت له صخرة منحدرة وملفته

للنظر ترقد على امتداد جانب الجبل وكأنها أفعى تزحف نحو الأعلى. وراء هذه الصخرة حكاية أسطورية تقول أن فتاة وفتى أحبا بعضهما وفرا إلى الجبال وفي أحد الكهوف بانت أفعى ضخمة تقدمت نحوهما تريد افتراسهما. دعت الفتاة من الله أن يحميهما... وفي اللحظة استحالت الأفعى إلى صخرة وأصبح العاشقان شجرتي رمان بين شدقي الأفعى (٢١٢).

إن المرأة الكُردية مثل كل النساء الشرقيات تؤمن بالعين الحاسدة التي يجب اتقاء شرها لكن الكُرديات على إختلاف مع الشرقيات في الإعتقاد إن العيون الزرق مجلبة للضرر أو الشر، فهذا الإعتقاد يكاد أن لايكون موجوداً. وتعليلنا لملاحظة توما بوا هذه هو الكثرة النسبية للعيون الزرقاء أو الملونة في المجتمع الكُردي قياسا بالمجتمع العربي أو الفارسي أو الهندي... الخ.

والحقيقة فان الدراسات المعنية بالسلالات والأجناس وأوصافها تشير إلى أن الكُرد يمثلون خط الابتداء بانكشاف لون البشرة وابتداء تغير لون العين من السوداء إلى الألوان النرجسية والزرقاء فكلما تقدمنا في كُردستان نحو الشمال كلما ازدادت نسبة الشقرة وقلت نسبة السمرة في البشرة وهكذا العيون ومن هنا لاتعد زرقة العيون (ندرة) تدور حولها الشائعات الميتافيزيقية التي يمكن أن نلمسها في مجتمعات شرقية أخرى.

ويحدثنا توما بوا عن أشكال التعاويذ والتمائم فبعضها مصنوع محليا وتكون على شكل قلائد وأخرى يصنعها (سيد) متجول على شكل كيس يكون مقابل مبلغ من المال وهي أوراق يخطط فيها كلمات وحروف غريبة وأرقام كما يمكن مشاهدة بعض الرسوم في التميمة مثل صورة سيف أو قلب وإذا أضيف قليل من شعر الزوج إلى هذه التميمة فان الزوجة تكون قد ضمنت حب زوجها.

كما تصنع بعض التمائم للأطفال وتعلق على ثيابهم أو حول الذراع لكن أهل المدن اقل تمسكا من أهل القرى والأرياف بهذه التمائم.

فمن الشعائر السحرية والقوى المؤثرة ضمن معظم المعتقدات يضعنا توما بوا أمام بعض المعتقدات التي لاشك أنها اصبحت اليوم تراثاً عفا عليه الزمن ومن هذه المعتقدات أن الزوجة إذا أرادت أن تسيطر على زوجها ويرضخ إلى أرادتها أطعمته مخ حمار تدسه له في الطعام.

ومن المعتقدات الأخرى أن الدائرة شكل مقدس وكان الكُردي يخط حول نفسه دائرة وهو يختبئ في مكان منعزل ليقي نفسه من الأرواح الشريرة. والحقيقة فإننا نذكر أن هذه القدسية للدائرة كانت موجودة لدى اليزيدية وربما بقيت إلى يومنا هذا عند بعضهم فإذا ما احيط اليزيدي بدائرة اصبح أسيرا لها لايمكن أن يغادرها إلا أن يأتي صاحب نفس كريمة ويفتح

الدائرة وهنا تجدر الإشارة إلى أن الدائرة كانت موضع تقديس الأغريق وهي من وجهة نظر الفلسفة الاغريقية أكمل الأشياء وبذلك فهي تحمل صفة الفضيلة وإن كل نقطة ابتدء فيها يمكن أن تكون نقطة انتهاء والعكس صحيح وهنا يجب أن لا ننسى أن كثيراً من التنظيرات الفلسفية والرياضية انتقلت إلى الاغريق من الشرق.

كما يتحدث توما بوا عن أشكال من المعتقدات والطقوس التي تجلب المطر إذا انقطع وبات الزرع مهددا والطقوس التي تطلب انقطاع المطر إذا كثر سقوطه فبات مهددا للزرع. ومن هذه الطقوس الذهاب إلى النهر والاغتسال أو أن ترتدي النسوة اجمل ثيابهن ويسكب الماء على اجمل ثوب بعد أن ترقص النسوة حول قدر بانتظار نضج الطعام فيه وإذا لم يسقط المطر فتسكب كل النسوة الماء على ملابسهن.

وفي بعض المناطق يغطس رجل تقي في حوض من الماء وقد يصنع الأطفال دمية من خشب يلبسونها العمامة والثياب وتغطس الدمية في الماء ويتجولون بها في الأزقة منادين ببعض الارجوزات الخاصة بجلب المطر.

وفي موقع آخر يكتب توما بوا عن المعتقدات ذات العلاقة بالشفاء من الأمراض والصحة. فهذا إسماعيل بك جولو اليزيدي وهو أمير على ما يذكر توما بوا يبصق في الماء لتشربه النسوة الطالبات للعلاج، فالمرضى يشفون والعقيمات يحبلن وينجبن والمهجورات يرجعن إلى أزواجهن ويحدث الحب والعطف.

أما تراب ضريح الشيخ عبد القادر الكيلاني المأخوذ من أي مكان ففيه الشفاء والبقاء للأطفال وكذلك لإيقاف الحمى يوضع خيط احمر في عنق أو ذراع الطفل المريض...

أما ويگرام فيحدثنا عن عقيدة القسمة والنصيب والقدر عند الكُرد وهو لايتحدث عن هذه العقيدة كونها موضوعاً مباشراً ولكنه يلمح إلى ذلك عبر بعض المواقف التي تصادفه، لكنه في موقع من كتابه يذكر إن عقيدة القضاء والقدر عقيدة لاتنجو النفس من إسارها في هذه الأرض، أرض القسمة والنصيب وإن مبدأها يتلخص في أن كل إنسان هو خالد حتى يلعب دوره كاملاً في الحياة ويؤدي رسالته(٢٠٦).

إن ما يذكره ويگرام قد لايكون لصيقاً بالكُرد وحدهم بل هو ما تؤمن به الشعوب الشرقية عموماً والإسلامية منها بخاصة وحتى في الديانات التي اعتنقتها الأقوام الشرقية قبل الإسلام كان بعضها يشير إلى القضاء والقدر والأجل المحتوم ولكن الإسلام عمق هذه العقيدة لديهم أي لدى هذه الشعوب لكن من الجدير بمكان أن نشير أن الكُرد تميزوا بشدة التمسك بالعقيدة الإسلامية وربما هذا الموضوع بحاجة إلى بحث في عوامله ومسبباته السياسية

والأنثروبولوجيا الإجتماعية لهذه الشعب، وهذا خارج نطاق دراستنا ولكنه يبقى من البحوث التي تنتظر من يبحث فيها وهي ليست من البحوث السهلة.

ويضعنا ويگرام أمام بعض المعتقدات الأخرى، فهناك (أرواح) الجبال والسهول والتي تمسك المسالك على المسافر، أما في سهل الموصل فهناك إعتقاد بوجود وطاويط مصاصة للدماء وهي مسوخ نصفها بشر ونصفها تبوس تخطف المسافرين من الممرات وتمتص دماءهم، كما يذكر وجود قبر لواحد من هذه العفاريت في قرية أرادن يفقس منه نوع من ذباب الخيل وهو ذباب قتال يصيب الملدوغين بالجنون وداء الكلب.

كما أن هناك عقيدة بوجود نوع من الجنيات المصغرات التي تغشى حظائر الغنم إذ يضطر معظم الرعاة إلى السهر بمفردهم وتغدو حالاتهم العقلية مهيأة لتقبل كل الأخيلة الغريبة التي تعن لهم، ومن القصص الطريفة التي يذكرها ويگرام في هذه المجال أن الجن كان يأتي ويجلس بمواجهة الراعي بصمت تام أمام النار الموقدة ويأخذ بتقليد كل حركة يأتيها الراعي ففاض الراعي ذرعا بالجني وانهارت أعصابه وطلب النصح من أحد العقلاء فأشار عليه بخطة طريفة وعمد إلى تنفيذها فوضع قدراً من الماء بجانب مجلسه عند النار وقدراً من النفط بالقرب من مجلس الجن فما أن أقبل معذبه واتخذ مكانه قبالته حتى بدأ الراعي يأخذ من القدر ماءً ويبلل ثيابه وراح الجني يقلده بالنفط دون أن يدرك الفرق بين السائلين، وبعد فترة أخرج الراعي جمرة من النار ملتهبة ووضعها على ثيابه المبللة فانطفأت وخمدت بفعل الماء طبعا وفعل الجني فعله فوجد النار تشتعل فيه فهب من مجلسه وهرب لايلوي على شيء وهو يصرخ ألماً (٣٠٢).

ثم يحدثنا ويگرام عن معتقد الكُرد وإعتزازهم بجبل جودي وهو واحد من سلسلة جبال رارات في كُردستان وقد حطت سفينة نوح عليه السلام على جبل جودي هذا وان الناس من مختلف الأديان والطوائف تجتمع في يوم معين وتنسى كل خلافاتها لإحياء ذكر رسو السفينة(٣٠٣). ويسرد ويگرام ما سمعه عن رسو السفينة ودور الحية التي سدت الأخدود في جبل سنجار لكي تعبر السفينة على ظهرها لكن الأفعى لم تلق جزاءاً حسناً من النبي نوح فقد عمد نوح إلى حرقها لكنها انتقمت بأن أنجبت مجاميع من البراغيث (٣٠٤).

ومن طرائف المعتقدات التي يذكرها ويگرام أن بعض الكُرد يعتقدون جازمين بأن الجنة من نصيبهم فيتبرعون ببعض من حصصهم في الجنة لغيرهم من الناس الذين لن تكون الجنة من نصيبهم، ولما خلع زميل ويگرام ضرس أحد القرويين وكان يؤلمه أعطاه (مجيديين) فرفض الرجل الإنكليزي ذلك وقال نحن نعالج مجاناً فأجابه القروي حسناً إذن أنا سيكون لي سبعون حورية عندما أدخل الجنة وبما انك نصراني فإن المكان الذي ستذهب إليه في الآخرة سيكون

خالياً من الحوريات لذلك أتبرع لك باثنتين من حورياتي فماذا تقول؟ فوافق الطبيب الإنكليزي بعد أن حسب هو وويگرام سعر الحورية بالمجيدي وبالشلن فكان سعر الحورية مجيدي واحد مما يعادل ثلاث شلنات وستة بنسات أي ما يعادل (١٧٥) فلساً عراقياً للحورية الواحدة! (٢٩٧).

وقد لاحظ ويگرام أن الكُرد يؤمنون بإصابة العين وهو يتحدث عن رجل بائس معدم جاء به وفد من أهالي قريته وطلبوا من ويگرام أن يشفيه ووصفوا أعراض مرضه انه إذا وقعت عيناه على وعاء فيه حليب فسد الحليب وان نظر إلى شاة افترسها أحد الذئاب وان تطلع إلى طفل سقط الطفل في النار وقالوا لويگرام أن لهم أملاً كبيراً بالإنكليز أن يشفوه بفضل علومهم ويعلق ويگرام على ذلك أنه اعتذر اليهم لان قانون الادوية الصيدلية في بريطانيا لايحوي علاجاً لمثل هذا المرض بالرغم من أن ويگرام يعترف بصفته رجل دين كان في حوزته رقى وتعاويذ ضد العين الشريرة مثل (دعاء جبرائيل رئيس الملائكة ضد بنت الآثم المهلكة) (٢٩٧).

ومن المعتقدات الطريفة التي شهدها ويگرام أثناء مكوثه في كُردستان أن رجلاً كردياً حضر عند الشيخ صديق والد سيد طه الشمزيني والشيخ صديق سليل أسرة دينية لها منزلتها الكبيرة في كُردستان، وأدعى هذا الرجل الكُردي الذي كان يحمل معه ديكاً، إن ديكه دأب على التبشير بدين النصارى وانه عندما يصيح فإنه يصيح (دين دين عيسى) ويبدو أن الحاضرين صدقوه أو هكذا تراءى لهم وهم يفسرون صياح الديك الذي بادر إلى الصياح في حضور الشيخ صديق.

لقد كان الشيخ صديق ذكياً على ما يذكر ويگرام فنطق بجواب يدل على حضور بديهة وذكاء ولكنه جواب مر الطعم كما يقول ويگرام بصفته مسيحياً ومبشراً. لقد قال الشيخ صديق أن المعجزة هي من الله وان هذا الديك يجب أن يبقى حياً وينزل منزل الإحترام والتقديس ولكن بما إن للمسيحية عدة مذاهب وكل مذهب يدعي هو الدين الحي وانه يسير على دين سيدنا عيسى الصحيح وبما أن الديك لم يصرح أي مذهب من هذه المذاهب هي الدين الصحيح لذلك ليس على المؤمن المسلم أن يفعل شيئاً حتى يتفق المسيحيون كلهم على إختلاف مذاهبهم لاتباع دين واحد أو حتى يهبط على الديك وحي أكثر وضوحاً (١٥٤).

ويختتم ويگرام أحاديثه المتفرقة عن المعتقدات أن شيخاً كردياً ذا صلاح وتقى وغيرة شديدة على الإسلام حتى أن السلطان عبد الحميد كان يراسله بجفرة خاصة. كما اعتاد أن يطلب منه الدعاء تلغرافياً كلما يعن له أمر أسود ويفكر في الإقدام عليه (٣١٠). والمرجح إن الشيخ الذي عناه ويگرام ولم يذكر اسمه هو الشيخ جواد النقشبندي صاحب التكية المعروفة

في مدينة كركوك.

يبدأ هاملتون بملاحظة المعتقدات الكُردية وهو في بداية رحلته من أربيل مستقبلاً الجبال الكُردية ماراً بالحقول التي كان يجري حصاد غلتها آنذاك. يحدثنا عن فلاح أنفصل عن جماعته مقبلاً على هاملتون ومن معه مستوقفاً إياهم في الطريق وهو يهرول وقد حمل منجله بيد وحفنة من الحنطة بيد أخرى. وكان هاملتون -على ما يبدو- يعرف هذا المعتقد أو ربما عرفوه به، فقد تناول ملء القبضة من الحب ووضع في يد الفلاح عدداً من المسكوكات النقدية وإبتسم الفلاح بسعادة لان هذه العملية التي يسميها هاملتون خرافة، من وجهة نظر كردية آنذاك مسألة ستجعل السعادة حليفة هاملتون، وهو يعترف أنه كان سعيدا في كُردستان ولكن ربما -على حد قوله- الفلاح الذي استلم النقود السخية كان أسعد. ويبدو أن رجلاً كردياً اسمه حسن كان يرافق هاملتون، إذ أخبره أن السعد سيكون حليفه لأنه أكرم فقيراً ضريراً في كركوك وأكرم فلاحاً يحصد المحصول (٥١).

وقد استرعت أكداس الحجارة التي يضعها الكُرد للتعبير عن مشاعر التقديس إنتباه هاملتون، وقد ذكرنا ذلك في موقع آخر من هذا الفصل والكدس الذي شاهده هاملتون كان تعويذة من الأرواح الشريرة (٧٧). ومن خلال إحدى المواقف يؤكد هاملتون على تمسك الكُرد وتشددهم في صيانة أجسام الموتى والحرص على مواراتها التراب، وكذلك فانهم يتمسكون بواجب الحصول على الجثة مهما كانت الأخطار لكي يتم دفنها بإحترام وفق الشرع (٧٠).

وهاملتون مثله مثل الآخرين من الرحالة والمستشرقين، لاحظ إيمان الكُرد بالتعاويذ والتمائم التي تقي صاحبها من الرصاص (كوللە بند) وهو يذكر أنه التقى بأشخاص كانوا قد حاربوا في صفوف الشيخ محمود الحفيد مؤكدين أنهم راءوا بأعينهم أن الرصاص كان يخترق جسد الشيخ وتقتل من يليه أما هو فلايصاب بأذى مؤكدين أن قتله في الحرب أمر غير ممكن (١٥٦).

ومن الأمور الطريفة في مجال المعتقد ما يذكره هاملتون عن إنطباع الكُرد عن (ليمنكتن) وهو أسم استعاره هاملتون في مذكراته للنقيب ليتد لديل، وكان هذا آنذاك ضابطاً في قوات الليفي وجريئاً وقادراً على ارتياد الجبال بشكل مثير للإنتباه وليس له غير مسدسه وجواده وقليل من الاتباع ولان هذا الضابط كان في عصب إحدى عينيه عيب أو خلل يمنعه من السيطرة عليها فكان شكله يبدو غريباً مما أعطى إنطباعا لدى الأكراد ممن كانوا يشاهدوه انه يملك قوى خارقة للطبيعة لسبب لايدريه هو (٦٦)، ويذكر هاملتون إعتقاد الكُرد الذين وصفهم بالقوم الذي لايرهبهم حيوان أو إنسان وهم يطلقون النار على أيهما بالسرعة نفسها، كانت وجوه بعضهم شاحبة داخل الكهف الذي أراد هاملتون استكشافه عندما انطفأ النور

فجأة، فقد ظن هؤلاء البسطاء المتمسكين بالخرافات أن زوال الضوء كان من عمل الجن، ومن فعل مارد الجبل الشرير. وقد علل هاملتون انطفاء المشعل إلى قلة الأوكسجين بعد أن توغلوا في الكهف فطلب منهم إشعال عيدان الثقاب والاستدارة نحو فوهة الكهف (١٧٦).

يحدثنا شميدت عن العقيدة الزرادشتية التي كانت ديانة الكُرد قبل دخولهم الإسلام، وهو يصف الكُرد مذهبيا بأنهم ينتمون إلى المذهب السني الشافعي ونعتقد لو أن شميدت ذكر أن (معظم) الكُرد على هذا المذهب لكان أدق في تعبيره (٢١٨) وبالرغم من أن عدداً من المؤرخين يعتقدون أن مقاطعة أذربيجان وهي أشهر مقاطعات ميديا هي موطن زرادشت الأول وأن لغتها كانت لغته القومية كما يذكر ذلك أحمد أمين (١١) فان المستر ريج يعتقد أن مدينة العمادية (في كُردستان العراق) هي موطن زرادشت (١٠٧).

نعود إلى شميدت وهو يصف الكُرد بأنهم غير متعصبين أو متزمتين ومتسامحين مع المسيحيين الذين يعيشون معهم.إذ يعتقد أن الكُردي العادي ليس متشدداً في إقامة صلاته اليومية أو صيام رمضان ويحج قلة من الكُرد إلى مكة ويعلل ذلك بسبب إجراء الشعائر الدينية باللغة العربية التي لايفهمها معظم الكُرد كما يعطي تعليلاً آخر فهو يعتقد أن الجبال قد تكون سبباً في إتجاهاتهم إلى التصوف وطرق الدروشة التي تهدف إلى الاتحاد الوجداني بالله (٢١٨).

لقد اختلف الرحالة والمستشرقون في موضوع مدى تدين الكُرد، ففي الوقت الذي نجد من يتفق رأيه مع رأي شميدت الذي ذكرناه تواً، نجد العكس أيضاً في إنطباعات غيرهم، فهذه هانسن على سبيل المثال تذكر، أنها لم تكن تعرف مدى تأثير الإسلام على الشعوب حتى زارت كُردستان ورأت كيف يقيمون الصلاة خمساً ويأتون الزكاة ويصومون ويذهبون إلى الحج إن استطاعوا (١١٩).

والحقيقة نحن نعتقد أن نسبة المصلين من الكُرد هي عالية قياساً بالشعوب الأخرى وحتى العربية ومعظم الكُرد يصومون رمضان ولكن ربما الظروف التي شاهد فيها شميدت كُردستان كانت ظروفاً غير طبيعية فقد تجول شميدت في مناطق تدور فيها حروب ضارية وقصف جوي ومدفعي وعوائل مشردة وأخرى تلوذ بالجبال والكهوف. ربما هذا بمجموعه لم يعط الصورة الواقعية للنزعة الدينية للكرد هذا من جهة ومن جهة أخرى نحن نعتقد أن الكُرد أقرب إلى فهم العربية من الباكستانيين مثلاً بحكم الجوار الجغرافي ولكن ملاحظته حول التصوف جديرة بالدراسة إذ راجت الطرق الصوفية في كُردستان وقد تحدثنا عن ذلك في موضع آخر من هذا لكتاب ومع ذلك فإن الطرق الصوفية لم تكن وليدة في كُردستان بل وافدة عليها وغالباً من أقوام آرية ولنا في هذا وجهة نظر خاصة، ربما كانت خارج إطار هدف الكتاب هذا.

ينقل شميدت إلى قرائه شكوى الكثير من الكُرد من تجاوز شيوخهم حدود سلطانهم لاسيّما البعض الذي تعاطى السحر والشعوذة واستغل سذاجة النساء والفتيات وعلى الرغم من ذلك فان شميدت لاينسى أن يذكر بان زعماء كرد لا بل بعض اعظم زعماء الكُرد كانوا متصوفة مثل الشيخ سعيد بيران الذي تزعم الثورة الكُردية في كُردستان تركيا ١٩٢٥ وشيخ محمود الحفيد وشيخ بارزان (٢١٨).

ويبدو إن شميدت قد لاحظ أن البعض يرجع إلى الشيخ فلان لأن عنده الغفران وربما قصد شميدت ما يسمى التوبة، فقد يذهب الكُرد عند أحد الشيوخ ليعلن التوبة عما سبق وفتح صفحة جديدة ويشعر الكُردي بعد هذه التوبة بصفاء الروح والخلاص من ثقل أفعاله والتوبة مشروطة بعدم العودة إلى ما لاتقبله الشريعة الإسلامية.

ومثل غيره من الرحالة يشير شميدت إلى الطريقتين الصوفيتين المعروفتين في كُردستان القادرية والنقشبندية ويصف بعض الفعاليات الشاذة. كما وانه يشير إلى طائفة اليزيدية وبعض طقوسهم وطوائف أخرى كالقزلباش (٢٢٠).

إن شميدت يرى أن الطرق الصوفية في كُردستان انتظمت على أسس قبلية، فالشيوخ يعملون ويفسرون في مواضع سكناهم يحيط بهم تلاميذهم ومريد وهم ويقوم أفاضلهم بتسلم (الطريقة) من شيوخهم والتبشير بها في قبائل أخرى وهكذا على حد قول شميدت انتظمت كُردستان كلها في شبكة حلقات صوفية، وفي مبدأ الأمر كان الشيوخ، رؤساء روحانيين لا غير ولما تعاظم نفوذهم وتراكمت الهدايا والعطايا أخذوا بالتدريج ينقبلون إلى زعماء ذوي سلطات زمنية (٢١٨). ويشير شميدت في مذكراته إلى أن بعض مريدي الصوفية يعتقدون أن شيخهم هو المهدي المنتظر (١٤٢).

وقد لاحظ شميدت أن الآباء يرسلون أطفالهم لتعلم القرآن الكريم ولكنهم على حد قوله يتعلمون قراءة القرآن لكنهم لايفهمون شيئاً، هي كما يذكر تمارين لتقوية الذاكرة ليس غير.

إن مشاهدة شميدت لهذا النوع من التربية الدينية كانت في قرية تسمى (سوريه) فقد وجد فيها رجل دين يحفظ القرآن لعشرة صبيان، وسورية هذه هي إحدى القرى التي أبيدت عن بكرة أبيها من قبل قوات الحكومة ولا نعتقد أن صبياً من الصبية الذين شاهدهم شميدت قد نجوا من القرية التي أحرقت بأهلها وهي قرية تابعة إلى قضاء زاخو مدينة المؤلف.

إن طريقة تدريس القرآن هي التحفيظ كما شاهدها شميدت وهي تقوم على التهجئة الصوتية ثم القراءة أما من يريد أن يكمل دراسته الدينية فإنه يدرس القرآن والفقه. ومع هذا فإن ملاحظة المؤلف هي صحيحة فكثير من الكُرد الكبار لايفقهون ما يقرأون أو لايفهمون ما

يرددون أثناء الصلاة إلا المتعلمين للغة العربية منهم وشأن الكُرد في هذا شأن الأقوام التي دخلت الإسلام كالباكستانيين والإيرانيين والترك... الخ لا بل إن المؤلف قد تأكد من أن كثيراً من العرب المصلين لايفقهون معاني الآيات التي يقرأونها أثناء الصلاة، فكيف بغيرهم من الأقوام. وعلى أي حال فإن هذه مسألة تخرج عن حدود وغايات كتابنا هذا ويمكن الحديث عنها في مجال آخر.

ومن الملاحظات التي سبقت ملاحظات المستر ريج هي ملاحظات بورتر الذي زار السليمانية قبل عام ١٨٢٠ فقد تحدث الأخير عن المعتقدات حول سرجنار قبل بلوغه السليمانية بقليل، فقد قيل له أن الماء المتدفق هناك ينبع من سفح تل أخضر وهو يحمل اسم الإمام علي (رض) رابع الخلفاء الراشدين، إشارة إلى بلوغ الإمام علي (رض) إلى سرجنار. وقد توارث الناس هذا المعتقد وهو أن الخليفة المقدس قد أقام خيمته مرة على المنحدر وقد نمت شجرتان هناك، أن كل شجرة قد نمت في الوتد الذي دق لربط حافر حصانه (٤٤٨)، وهذا ما ذكره ريج أيضاً ودونه في مذكراته عام ١٨٢٠.

إن لظاهرة الموت علاقة وطيدة بالمعتقدات ومن هنا نجد إن كل الأقوام عبر مسيرة الحضارة الإنسانية ربطت بين الموت والدين، أو المعتقد. ومن هنا لابد أن ننظر إلى مسألة الموت في الشعب الكُردي من زاويتين الأولى تمثل الموروث الانثروإجتماعي للشعب الكُردي والثانية تمثل نظرة الدين الإسلامي إلى الموت ذلك أن الشعب الكُردي في كثرته شعب مسلم.

يذكر توما بوا أن الكُردي صلد أمام الموت ويعرف كيف يواجه الموت بشجاعة ويذكر بوا عدداً من الأمثلة والحكم الكُردية المعنية بالموت كما وأنه يشير إلى أن للكرد في مناسبة الوفاة والمآتم عادات خاصة بهم، ويفضل الكُردي الموت في ساحة المعركة من الموت في السرير.

والحقيقة نود هنا أن نسترسل في ذكر إنطباعات توما بوا عن الموقف والتعامل مع ظاهرة الموت عند اليزيدية بصفتهم أكراداً اقحاحاً في كثير من صنوف طقوسهم لإعطاء طابع تاريخي عن الكُرد قبل الإسلام في هذا الموضوع، وربما بقيت بعض هذه الطقوس واندثر القسم الباقي.

يغسل الجسد رجل ديني يسمى (بير*) وهي درجة دينية في اليزيدية. يغسل الجسد ويدعك بنباتات عطرية وتخيط الجثة بالكفن وقديماً إذا كان الميت شاباً فأنهم كانوا يصنعون له نوعاً من التماثيل في غرفة لتمثله ويضعون شجرة الحداد (داري شيني) على الدابة المفضلة لدى المتوفي (٩٨) كما ويجب اشعال نور لمدة ثلاثة أيام في الغرفة الجنائزية. والحقيقة لو

* إن كلمة Peer في الإنكليزية تعني: النبيل، الشريف، الأمير. وفي الكردية العامة، وليس كمصطلح ديني تعني كبير السن.

عدنا إلى الاسطورة الكُردية العريقة مميئالان (مَمْ الألاني) لوجدنا أن مراسيم تشييع جنازة مَمْ شبيهة بما جاء ذكره عند توما بوا.

وقد ذكرنا في ترجمتنا لهذه الاسطورة عام ١٩٨٥، أن محاولات جرت لإضفاء طابع إسلامي عليها ولكن بإمكان القاريء أن يطلع على مقدمتنا وكذلك مقدمة روجر ليسكو في ذات الكتاب ليستنتج إن هذه الأسطورة كان الكُرد يرددونها قبل الإسلام (٥-٢٦).

نعود إلى توما بوا الذي يذكر أن معظم الرحالة لاحظوا أن الأرملة أو الخطيبة في المجتمع الكُردي تقص شعرها لكي يشبك على العمود الجنائزي كعربون للمودة والوفاء إزاء الفقيد (٩٩).

والحقيقة نجد أن قص المرأة الكُردية لشعرها (جدائلها) من الرموز المأساوية التي وردت في كثير من الملاحم الكُردية المغناة وفي القصص الشفاهية الكُردية كتعبير عن عمق المأساة لاسيّما في الموت. وكذلك يقال أن قص شعر المرأة (حلق رأسها) كان نوع من أنواع العقاب الذي تعاقب به امرأة جانية. كما ويذكر توما بوا أيضاً أن بالإمكان مشاهدة مخلفات زرادشتية على شواهد قبور بعض اليزيدية فقد نجد نقوشاً لخنجر أو بنادق أو عدة العمل أو عقبان أو دوائر للتعبير عن الشمس إذا كان الميت محارباً أما المرأة الميتة فنجد صور الزهور والامشاط والأساور محفورة على شاهدي القبر. كما ويقوم بعض الأكراد بعمل بعض الحفر الصغيرة على القبر لتملأ بالماء فتشرب منها العصافير والحيوانات العطشى من أجل الفقيد.

كذلك يصف توما بوا أن الرجل المقدس تنصب على ضريحه يد من حديد رمز انتقال رايته إلى الأجيال التالية -ونحن نعتقد أن اليد هنا تعني التحية وحلول البركة على المارة بالضريح: المؤلف- كما يذكر بوا وجود مقبرة عند الكلهور وهم جزء من أكراد إيران مقبرة من الحجارة المنحوتة بشكل غريب جداً تمثل صوراً لإمرأة تمسك بطفلين، أو كردياً مع بندقيته وهو محاط بالأغنام والغزلان، وينصب عند البختيارية -وهم أيضاً من أكراد إيران- تمثالاً أسد على قبر رجل شجاع.

وقد استغربت مدام جاكينيان في رحلتها عبر أرمينيا عام ١٩٥٢ من مقبرة في قرية يزيدية حيث وجدت فيها رسوماً مرتفعة لخيول ضخمة من كل الألوان، أصهب، أحمر، أسود وأبيض موضوعة على قواعد وتبدو وكأنها تحاول الركض فالسيقان الأمامية والخلفية منثنية تجاه بعضها والرأس منحني نحو الأسفل وذيولها مرفوعة ومقوسة وتبدو هذه التماثيل ملأى بالحدة والقوة.

ويعلق توما بوا على هذا الذي شاهدته جاكينيان وجود قبور كردية في قرى أخرى وان

قبور النساء غالباً تكون بلاطة بسيطة مع صورة مهد، كما يذكر أن هذه المقابر الكُردية (ويقصد ضمناً مقابر اليزيدية أو بعبارة أخرى المقابر الكُردية ما قبل الإسلام) تمنح مظهراً خيالياً فريداً.

ويستمر الحداد عاماً كاملاً بصورة عامة وخلال الأيام الثلاثة الأولى لايخرج أهل الميت من البيت تماماً وذلك لاستقبال المعزين والصيغ المستعملة والمتداولة في هذه المناسبات تعكس الرضوخ التام لمشيئة الله والأماني بطول الحياة للباقين. ويقوم اليزيدية عشية نوروز بجولة إلى المقبرة وهم يعزفون على الطبل والناي بينما تنتحب النساء ويضربن على صدورهن ويترك على كل قبر قليل من الطعام الذي يوزع فيما بعد على الفقراء والمارة (١٠٠-١٠١).

أما بالنسبة لمقابر المسلمين ومراسيم الدفن خاضعة للشريعة الإسلامية وشأن الكُرد في ذلك شأن كل الشعوب الإسلامية إذ يسجى المتوفى على جانب ويكون بإتجاه القبلة (مكة المكرمة) ويتلو رجل الدين سورة من القرآن الكريم كما ويلقنه بما عليه أن يجيب الملكين اللذين سيأتيان لاستجوابه فيوصيه بما عليه أن يجيب ويذكره أن الإجابة ستكون باللغة العربية. لا بل عملية التلقين نفسها تجري باللغة العربية.

لقد عني هوبارد أيضاً بالمقابر في كُردستان وذكر بأنها يمكن أن تعكس خصوصيتها، فالكُرد من ملاحظاته المباشرة لايختارون مناطق بعيدة لدفن موتاهم بل يختارون أجمل وأقرب منطقة وضمن مدى رؤيتهم لتكون المقبرة، وغالباً تجد في المقبرة شجرة أو مجموعة أشجار وتظهر الصخور رمادية اللون نابتة من داخل الأرض لتكون شواهد القبور، وهذه الصخور عادة لايكتب عليها شيْ مما يوحي إلى من يكون هذا القبر كالذي تجده في الكنائس الإنكليزية وكذلك لاتكتب عليها آيات قرآنية كما هو الحال في المقابر التركية.

يذكر هوبارد أنه شاهد بعض التصاميم على بعض الشواخص على الجهتين فهناك من التخطيطات ما يشبه مقطعاً من حلزون وخطوط متموجة أو ما يشبه قرص شمس وهي تبعث بأشعتها، ويعلق هوبارد على هذا، إن من الضروري معرفة أي قسم من الزرادشتية يلعب دوره في مثل هذه التخطيطات القديمة ففي بعض أقسام كُردستان هناك علامات تقليدية خططت على صخور القبر للإشارة إلى جنس الميت، ومستواه، فوجود تخطيط لـ(مشطين) يدل أن القبر لامرأة بينما تخطيط لـ(خنجر) يدل أن القبر لرجل، بينما إذا ثبت فوق القبر كف حديدي فهذا يرمز إلى أن المتوفى سليل عائلة مقدسة، هذه الصفة التي يتوارثها البعض جيلاً عن جيل.

ويحدثنا هوبارد عن إعجابه بالمقابر في منطقة هاورمان (شمال شرق كُردستان العراق وشمال غرب كُردستان إيران) التي تتفيأ بظلال أشجار البلوط وأزاهير السوسن (وفي كثير من المقابر في كُردستان نجدها تزرع بأزاهير النرجس: المؤلف) وتكون هناك بعض النقوش

القليلة على قطع مرمرية ملونة ويحاط القبر بالحصى أو بالأعلام التي ترفرف عليها خرق بيضاء (٢٢٣).

ومن المعتقدات التي تلعب دوراً حاسماً في ضبط السلوك غير المقبول كالسرقة مثلاً هي المزارات المقدسة وقد أورد مارك سايكس مثالاً على مزار في منطقة الوزه ى في أربيل وهو ضريح لشخص ذي قداسة أسمه حسن غازي وينزله الكُرد لاسيّما في تلك المنطقة منزلة عظيمة السمو. إن المقبرة المحاطة بهذا الضريح أصبحت ملجأ لحماية الموجودات من السراق وأصحاب الضغائن، فما من أحد يلاحق من يحتمي مستجيراً به حتى لو كان المستجير مطلوباً لأن يقتل. وبإمكان الأشخاص أن يتركوا ما شاءوا من ودائعهم في تلك المقبرة لأن ما من لص يجرؤ أن يسرق هذه الودائع خشية من قداسة الضريح فنجد في المقبرة أنواعاً من الأثاث والودائع يعددها سايكس ولاتمسها يد ويعلق عليها قائلاً، إن هذا مثال غريب وطريف للقانون المدني غير الواعي في شعب يمكن أن يحوي عتاة اللصوص (١٨٩).

لقد لاحظ ريج وسواه من الرحالة أن بعض المناطق والمقابر يضاف إليها كلمة كافر أو كفار. فهذا ريج يحدثنا عن شجرتين تعلوان تلاً قرب سرجنار تدلان على موقع معركة دارت هناك ويعلق ريج إن الأكراد يعتقدون أن الإمام علي رضي الله عنه غرز رمحه في هذا المكان ! بعد اشتباكه بالكفار ولكن عبد الرحمن آغا الذي أرسله محمود باشا أمير بابان لاستقباله لم يكن يصدق بهذا الإعتقاد وقد أخبر ريج أن هذا الذي يقال أسطورة كردية ليس إلا (٤٨).

ولاشك أن بعض رجال الدين لعبوا دوراً لاعقلانياً في تاريخ وحياة الشعب الكُردي فحرموا وحللوا وقدسوا ودنسوا كما أملت عليهم قرائحهم. إن معركة ما -ربما- قد قامت في تلك المنطقة جعلوها ترتدي لبوساً دينياً وتجعل من المقاتلين الأكراد كفاراً. ولنفرض أن المعركة حقاً كانت بين الفاتحين المسلمين والأكراد غير المسلمين فلماذا يسمى الأكراد كفاراً؟ كيف يكون الإنسان كافراً وهو يجد نفسه فجأة أمام جمع أو جيش جرار من حملة السيوف والرماح ولايعرف لغة هؤلاء الفاتحين ولايعرف ما يحملون من فكرة؟! ولذا نعتقد أن كل كردي قاوم الفتح الإسلامي ليس بكافر بل هو مدافع عن ديانته وديانة آبائه وأجداده مثلما حدث في شبه الجزيرة العربية لا بل في مكة نفسها على الرغم من أن الديانة الزرادشتية أرقى بكثير وأنبل مما كانت تدين به القبائل العربية آنذاك والتي تصنع آلهتها من التمر وما أن تجوع حتى تأكل آلهتها.

إذن نحن نعتقد أن الشخص لايجوز تسميته بكافر إلا إذا منح فرصة كافية لفهم هذا الدين أو إذا آمن بالإسلام واقتنع به ثم إرتد عنه وخشية من سوء فهم القصد لنأخذ مثالاً على

ما نقول:

لنفرض أن جماعة من حزب أنصار سلامة البيئة اضطرها الموقف أن تهاجم قارباً فيه شخص يصيد الأسماك بطريقة تلوث النهر أو البحر وتؤدي إلى إصابات سرطانية له وللناس واضطره الموقف أن يقاومهم بالسلاح وهو يجهل تفاصيل وفكر هذا الحزب الإنساني المسلم وقتل هذا الصياد نتيجة الصدام المسلح، فهل يعني هذا أن هذا الصياد كان يتمنى أن يصاب بالسرطان هو أو أبناء قريته؟ إن لم يكن قد ثقف مسبقا بخطورة ما يفعل وان المواد التي يقذفها في النهر ستؤدي إلى التهلكة. فكيف لو أن هذا الصياد لم يفعل ما يسيء لا لنفسه ولا للآخرين إنما كان يصيد على طريقة آبائه وأجداده وبكل سلام وخلقية.لقد قاوم الصياد من أجل عيشه وإعالة أسرته وموته موت "مشرف" بعكس الصيادين أو أصحاب المصانع الذين يلوثون البحر بمواد مشعة أو غير مشعة ولكنها مسيئة جداً للبيئة وهم يعرفون ذلك علم اليقين وقد أنذروا وأحيطوا علماً بفداحة ما يفعلون... وهكذا الفتح الإسلامي في منظورنا... لماذا يقتل الفرد وهو يباغت بفكر ولغة لايعيها مسبقاً؟ لماذا تغزى الشعوب وتسلب منهم أراضيهم وزوجاتهم وبناتهم وأموالهم بسبب أفكارهم، ولماذا السيف في نشر الفكر وليس الحوار؟! لماذا الدماء؟! لذا فإن مؤلف هذا الكتاب يدعو وبإصرار إلى رفع كلمة كافر عن كل مقبرة وشاهد صخري أو كهف أو شجرة أو أي بقعة أرض في كُردستان وصفت بالكفر نتيجة هجوم الفاتحين على الأكراد الآمنين في كُردستانهم فقد كان دفاعهم عن أرضهم وعرضهم وأموالهم مشروعاً لا بل عملاً بطولياً والدفاع عن الأرض والعرض جهاد ما بعده جهاد.

ومن هنا تجدر الإشارة إلى أن ملاحظات الرحالة أو الأجانب عن وجود معتقدات كردية جلبت إنتباههم ودونت في مذكراتهم هي من وجهة نظرنا تتصف بما يأتي:

١- إن كثيراً من المعتقدات التي شاهدها المستشرقون أو الرحالة هي ليست لصيقة الشعب الكُردي وحده بل نجدها لدى الأقوام الآرية في الشرق الأوسط.

٢- إن بعض ما يشاهد في منطقة كردية أو لدى قبيلة كردية من معتقد قد لايشاهد في منطقة أخرى أو لدى قبيلة أخرى فما قد ينتشر ويمكث لدى قبيلة ربما يمكث أكثر لدى قبيلة أخرى ولأسباب متعددة.

٣- يعود البعض من هذه المعتقدات إلى ما قبل الإسلام وربما كانت الطقوس الدينية الزرادشتية أو توصيات رجال الدين آنذاك أو بقايا من معتقدات أصولها آشورية أو بابلية انتقلت إلى المسيحية وبقيت مع الكُردي الذي أصبح مسلماً من بعد ولهذا يشترك المسلمون والمسيحيون الكُرد بها مثل عقيدة وضع سكين صغير تحت وسادة الطفل الوليد

الجديد وان كانت هذه العادة قد باتت منقرضة تقريباً في هذه الأيام.

٤- إن بعض المعتقدات وصلت كُردستان ونشأت في كُردستان بعد دخول الكُرد الإسلام وكان لبعض -وقد يكونون كثرة- من رجال الدين دورهم في ترسيخ هذه المعتقدات التي لاتمت إلى جوهر الدين الإسلامي بصلة.